

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف) →

القسم الثاني :

قضايا وشخصيات

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

## الشاعر الجاهلي المغمور

### أبو دواد الإيادي

شاع فى كتب الأمثال العربية قولهم "جار كجار أبى دواد" فمن أبو دواد ؟  
وما الذى فعله ذلك الجار الذى خلد فعله ذكراه ؟ ولم ضاع شعر أبى دواد ؟  
لقد كان أبو دواد الإيادى شاعرا مجيدا للوصف ، وكان ابنه شاعرا واسمه  
دواد، وابنته دوادة شاعرة أيضا .  
ولكن ما بقى من تراث هذه الأسرة الشاعرة قليل فى بطون أمهات الكتب .  
برغم جودته ورقته .

وفى السطور التالية نقضى ساعة فى ضيافة هذه الأسرة الشاعرة التى ذاع  
صيتها وضاع صوتها بين رياح التاريخ الأدبى الهوجاء:  
اسمه وكنيته :

لم يتفق المؤرخون على اسم أبو دواد الإيادى . وهناك عدة روايات:  
○ قال الأصفهاني<sup>(١)</sup> : إن اسمه جارية بن الحجاج . وكان أبوه الحجاج  
يلقب بحمران بن بحر بن عصام بن منبه بن حذاقة بن زهير بن إياد بن  
نزار بن معد . ونسب القول بهذا الى يعقوب بن السكيت .

١ - أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني ، ج ١٦ . دار إحياء التراث العربى . - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ص ٣٧٣ وما بعدها .

- وقال محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) في كتابه "كنى الشعراء" أن اسمه حارث بن حمران ابن بحر بن عصام ، وأشار عبد السلام هارون في تحقيقه لهذا الكتاب إلى ما أورده صاحب المؤتلف من أن اسمه جويرية بن الحجاج أو حنظله بن الشرقى كما في الشعر والشعراء<sup>(١)</sup>.
- وقال الأمدى في "المؤتلف والمختلف" : اسمه جويرية بن الحجاج من حى من إياد<sup>(٢)</sup>.
- وقال ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" : اختلفوا في اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج . وقال الأصمعى : هو حنظلة بن الشرقى . وقد علق المحقق أحمد محمد شاكر على هذه العبارة واصفا إياها بالشذوذ لأن حنظلة بن الشرقى هو أبو الطمحان القينى ووردت له ترجمة في الشعر والشعراء نفسه، كما أن الأصمعى الذى نسب إليه تسمية أبي دؤاد بحنظلة أورد لأبي دواد قصيدة فى الأصمعيات وقال : اسمه جارية بن الحجاج<sup>(٣)</sup>.
- وقال كارل بروكلمان ان اسمه : جويرية بن الحجاج<sup>(٤)</sup>.
- وقالت د. بنت الشاطىء فى شرحها لرسالة "الصاهل والشاحج" لأبى العلاء المعرى عن جمهرة الأنساب أنه جارية بن الحجاج كما أشارت إلى ما

---

١- محمد بن حبيب . كتاب كنى الشعراء ومن غُلبت كنيته على اسمه .- تحقيق عبد السلام هارون ، فى نوادر المخطوطات، ج ٥. - ط ٢. - القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٣م؛ ص ٢٨٥ .  
٢ . الأمدى . المؤتلف والمختلف . بيروت : دار الكتب العلمية . - ط ٢ ؛ ١٩٨٢ ، ص ١١٥ .  
٣ . ابن قتيبة . الشعر والشعراء . - ج ١ . - القاهرة : دار المعارف؛ ١٩٨٢ ؛ ص ٢٣٧ .  
٤ . كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى . - ج ١ .- ترجمة د. عبد الحليم النجار . - ط ٥ . - القاهرة : دار المعارف ؛ ١٩٨٣ ؛ ص ١١٨ .

أورده ابن قتيبة من خلاف في اسمه (١) .

○ وذكر ابن خلكان أن اسمه حارثة بن حجاج وقيل حنظلة بن شرقى (٢) .  
وحاصل ما تقدم أن اضطراب الرواة في ذكر اسمه يجعلنا أمام أحد  
الاحتمالات التالية:

١- أن يكون اسمه حارثة أو جارية . وواضح أن الاختلاف بينهما مرجعه إلى  
ظاهرة التصحيف التي كانت تسيطر على كتب التراث التي قلما ورد فيها  
نقط الحروف فمبنى الكلمتين - بدون النقط - واحد هكذا (حاره) .

٢- وأن تسمية "جويرية" وهي تصغير جارية التي أوردها الأمدى ونقلها عنه  
بروكلمان تقوى احتمال أن يكون الاسم جارية لاحارثة . وقد تكون تصغير  
الاسم صاحبة حقة من حياته في أول عمره مثلا .

٣- ولا خلاف بين الرواة على أن اسم أبيه "الحجاج" وأن لقب الحجاج هذا  
كان (حمران) مما جعل محمد ابن حبيب ينسبه إلى اللقب فيقول أن  
اسمه : حارث بن حمران .

٤- ولا خلاف بين الرواة على أن اسمه بعد أبيه مستقيم فجدده هو بحر بن  
عصام .

١ . أبو العلاء المعرى . رسالة الصاهل والشامج . - تحقيق د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) . - ط ٢ . - القاهرة :  
دار المعارف ؛ ١٩٨٤ ؛ ص ١٥٨ .  
٢ . ابن خلكان . وفيات الأعيان . - ج ٥ تحقيق د : إحسان عباس ، بيروت : دار صادر ؛ ١٩٧٧ م ص ١٦٤ .

٥- وأما حنظلة بن شرقى فهو خطأ محض ، أو قول منسوب إلى الأصمعي دون دليل وقد نقله ابن خلكان فيما يبدو عن ابن قتيبة وإن لم ينص على ذلك صراحة .

وأما كنيته (أبو دواد) فقد أشار إليها ابن منظور<sup>(١)</sup> في لسان العرب في مادة (دود) فقال : "قال بن الأعرابي: الدوادى مأخوذ من الدواد وهو الخضف الذى يخرج من الإنسان . وبه كنى أو دواد الإيادى والخضف - كما قال فى اللسان أيضا - هو الضراط وأنشد:

إننا وجدنا خلفاً بئس الخلف  
عبداً إذا مانء بالجمل خضف  
أغلق عنا بابيه ثم حلف  
لا يُدخل البوابُ إلا من عَرَفَ

ولكننا نستبعد أن يكون هذا المعنى اللغوى البعيد عن الذوق العربى هو مصدر الكنية .

ونفيل إلى أن يكون أو دواد قد كنى بهذه الكنية لأن له ولداً اسمه دواد أشارت المصادر التاريخية الى وجوده والى أن لهذا الولد مع أبيه مواقف مشهودة سيأتى ذكرها ولعله كان أكبر - أو من أكبر - أولاده فكنى به .

١ . ابن منظور . لسان العرب . - ٢م - القاهرة : دار المعارف ؛ دوت؛ ص ١٤٥٠ (مادة دود)؛ ص ١١٨٩ مادة (خضف) .

### موطنه :

يبدو أن دواد بن أبي دواد كان من أكابر بنى إياد الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية فقد وصفه المؤرخون بأنه كان أحد نُعَّات الخيل الثلاثة المشهورين والآخران هما طغيل الغنوى والنابعة الجعدى .

قالوا : " وإنما أحسن أبو دواد وصف الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن المنذر" وهناك من النصوص ما يدل على أن إيادا اختارت السكنى بأرض ما بين نهري دجلة والفرات . فقد روى الأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ) فى كتاب "الاختيارين" (١)

قصيدة للأخنس بن شهاب التغلبى مطلعها:

لابنة حيطان بن عوف منازل      كما رَقَّش العنوان فى الرق كاتب  
يذكر فيها بعض تنقلات قبائل العرب فى أراضى الجزيرة فيقول:  
وبكر لها بر العراق ، وان تخف      يحل دونها، من اليمامة حاجب  
وصارت تميم بين قف ورملة      لها فى حبال منتأى ومذاهب  
وكلب لها خبت فرملة عالج      إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب  
وغسان حى، عزهم فى سواهم      يجالد عنهم حسروكتائب  
إلى أن يقول :

وغارت إياد فى السواد ودونها      برازيق عجم تبتغى وتضارب

١ . الأخفش الأصفر (ت ٢٣٥هـ) . كتاب الاختيارين . - تحقيق د . فخر الدين قباوة . - ط ٢ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ؛ ١٩٨٤ ؛ ص ١٤٠ .

فالمراد بالسواد هنا أرض العراق، والبرازيق واحدها برزيق وهو الموكب  
بالفارسية.

كما روى الأخفش أيضا في كتابه هذا قصيدة للأسود بن يعفر النهشلي (١)  
مطلعها:

نام الخلى وما أحس رقادى      والههم محتضر لدى وسادى  
جاء فيها :

ماذا أوّمل بعد آل محرق      تركوا منازلهم وبعدها إياد؟  
أهل الخورنق والسدير وبارق      والقصر ندى الشرفات من سنداد  
أرض تخيرها لبرد مقلها      كعب بن ماجة وابن أم دواد

وسنداد أسفل الحيرة بينها وبين البصرة، كما جاء فى المصادر، وقد كانت  
الحيرة هى عاصمة ملك المناذرة وهم من أصول عربية يمنية ترجع الى قبيلة لخم وقد  
جاءوا إلى أرض العراق فى حوالى القرن الثالث الميلادى واتخذوا الحيرة مستقرا لهم  
وهى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد ثلاثة أميال من المكان الذى  
بُنيت فيه الكوفة فيما بعد (٢).

وكانت قبيلة إياد - التى دان أكثر أفرادها بالنصرانية هم وتغلب وبكر - وقد  
غادرت أرض البحرين بعد أن أجلتها عنها قبيلة عبد القيس، إلى أرض العراق بين

١ . السابق . ص ٥٥٨ .  
٢ . د . يحيى الجبورى . الجاهلية . - بغداد : مطبعة المعارف، ١٩٦٨، ص ٤٩ .

صفحات مجهزة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

النهرين واستوطن الإياديون تكريت وسنداد وغيرهما من تلك البلاد الخصبة واتخذوا الزراعة مهنة لهم .

ولم تكن الزراعة من المهن التي تتفق مع الطبيعة العربية التي تميل إلى التجارة والرعى .

فقد كان العرب يرون في الزراعة ذلاً وهواناً لأنها كانت حرفة الحضر وأهل الحضر المستقرين، أما أهل البادية فكانوا أهل مغامرة وفتوة . وقد عير الأعشى قبيلة إياد بامتهان الزراعة .

فقال (١) :

لسنا كمن جعلت إياد دارها      تكريت تنظر حبها أن يحصدا  
قوما يعالج قُملاً أبناءهم      وسلاسلا أجدا وبابا موصدا

وهذه الأبيات السابقة تدل على مساكن إياد بعامية ومساكن أبي دواد (ابن أم دواد) وكعب بن مامة بصفة خاصة .

وذهب ابن خلكان في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن سنان الحراني التبانى الحاسب (ت ٣١٠هـ) وهو عالم فلكي قديم توفى بموضع يسمى الحضر بفتح الحاء وسكون الضاد - وهي مدينة قديمة بالقرب من تكريت بين دجلة والفرات في البرية يلقب حاكمها بالساطرون - بفتح السين وكسر الطاء وضم الراء - وهو لفظ

١ . السابق ، ص ٧٨ .

سرياني معناه الملك، إلى أن أبادوا الأيادي ذكر في شعره حصار أردشير بن بابل أول ملوك الفرس لهذه المدينة وقتل الساطرون فقال أبو دواد (١):

وأرى الموت قد تدلى من الـ حضر على رب أهله الساطرون  
مرعته الأيام من بعد ملك ونعيم وجوهـر مكنون

مكانة أبي داود بين قومه :

روى الأصفهاني في الأغاني (٣٧٧/١٦) عن الأصمعي أن أبا دالود كان على خيل المنذر بن ماء السماء فأكثر وصفه للخيل. وقد كان المنذر بن ماء السماء (٥١٤-٥٥٤م) من أشهر ملوك المناذرة ومحط رحال الشعراء وكان يتمتع بشخصية قوية فقد رفض الديانة المزدكية التي عرضها عليه "قباد" ملك الفرس الذين كان المناذرة يتبعونهم سياسيا مما أدى إلى عزله حتى أعاد كسرى أنوشروان الذي خلف قبادا وكان يبغض المزدكية فعاد المنذر حاكما للحيرة وعادت معه عاداته التي عرف بها مثل يومى النعيم والؤس وغيرهما.

ولاشك في أن تولية أبي دواد أمر الخيل بالنسبة لملك كالمنذر كانت دليلا على مكانة اجتماعية متميزة حظي بها هذا الشاعر الإيادي مما جعله يتفنن في نيل الحظوة بتجويد شعره وإتقان عمله، فأجاد في وصفه الخيل حتى اشتهر. وقد كان لأبي دواد ناقة تسمى الزباء وكان بنو إباد - فيما يروى صاحب الأغاني - يتبركون بها. فلما أصابتهم سنة قاحلة تفرقوا ثلاث فرق: فرقة سلكت في البحر فهلكت وفرقة قصدت اليمن إلى حيث أصولها الأولى فسلمت. وفرقة قصدت أرض جيرانهم

١. ابن خلكان. مرجع سابق؛ ص ص ١٦٤-١٦٥.

من قبيلة بكر بن وائل فنزلوا بالحارث بن همام وكان السبب فى ذلك أنهم أرسلوا الزيا ناقة أبى دواد التى كانوا يتبركون بها واتبعوا سيرها فحيثما اتجهت اتبعوها ومازالوا كذلك حتى بركت فى فناء الحارث بن همام وكان أكرم الناس جوارا فقال أبو دواد يمدحه ويذكر ناقته الزياء:

فإلى ابن همام بن مرة أصعدت      ظعن الخييط بهم فقل زياها  
أنعمت نعمة ماجد نى منة      نصبت عليه من العلا أظلالها  
وجعلتنا دون الولى فأصبحت      زباء منقطعا إليك عقاله

ويبدو أن أبا دواد لم يتبوأ تلك المكانة فى قومه إلا بعد أن ظهرت عليه مخايل الفروسية وأمارات الشجاعة فقد روى له أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والشاحج أبياتا تموج بالفخر والفروسية وحب ركوب الخيل يقول فيها<sup>(١)</sup>:

علقت هامتى بعض ما يمد      نع منى الأعنة الأقدار  
وانجرادى بهن نحو عدوى      وارتحالى البلاد والتسيار  
تلكم لذتى الى يوم موتى      إن موتا وإن عمرت قصار

١ . أنظر المرجع رقم (٦) ص ١٥٨ .

### قصة جار أبي دواد :

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مكانة أبي دواد بين قومه أن نتغاضى عن البيت الشهير الذى يتردد كثيرا فى كتب التراث منسوبا إلى الشاعر قيس بن زهير العيسى وهو قوله:

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

ويروى أحيانا :

سأفعل ما بدا لى ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

وقد ورد ذكر ذلك الجار نفسه فى قول طرفة بن العبد يمدح عمرو بن هند :

إنى كفانى من هم هممت به جار كجار الحذاقى الذى اتصفا

والحذاقى هو أبو داود منسوبا إلى حذاق وهم قبيلة من إياد. فمن ذلك

الجار؟

الحقيقة أن الرواة اضطربوا فى تحديد شخصية ذلك الجار فمنهم من ذهب

إلى أنه كعب بن مامة الإيادى وهو ابن عم أبى دواد ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه

الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ؛ ومنهم من ذهب إلى أنه المنذر بن ماء

السماء .

وقد روى الأصفهانى ثلاث قصص يبدو فيها عدم القدرة على تحديد ذلك

الجار الشهم من بين هؤلاء الثلاثة . أما ابن قتيبة فقد جعل ذلك الجار ملكا من

ملوك اليمن لجأ إليه أبو دواد، ثم جعله مرة ثانية الحارث بن همام بن مرة ، ثم نقل عن أبي عبيدة أنه كعب بن مامة ، ولم يحدد لنا كذلك إلى أى الروايات يميل .  
أما أن هذا الجار الممدوح هو الحارث بن همام فقد ساق ابن قتيبة فى تأييد ذلك قصة مؤداها أن قباد - ملك الفرس - أرسل جيشا بقيادة الحارث بن همام لتأديب قبيلة إياد فاستجار به قوم من إياد فيهم أبو دواد فأجارهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن قباد هذا أراد أن يفرض الديانة المزكية التى يدين بها على المناذرة فلم يفلح إزاء تشدد المنذر بن ماء السماء مما أدى إلى عزل المنزل ثم تولى كسرى أنوشروان فأعاد المنذر ملكا على الحيرة ، ولا يبعد أن يكون قباد قد جيش جيوشا أرسلها إلى الحيرة ولكن من المستبعد أن يكون الحارث بن همام إذا كان أميرا لهذه الجيش من الوهن والضعف بحيث يغيب أى مستغيث ، ويعفو عن بنى إياد - وهو مرسل إليهم كما روى ابن قتيبة - لمجرد أن أبا دواد استجاره .

وحتى إذا أجاره من القتل والتشريد فهل ستدوم بينهما العشرة حتى يصبح ممدوحا له وموصوفا بأنه خير جار ؟

وعلى فرض صحة تلك الرواية فماذا فعل أبو دواد بعد أن الت دولة قباد وعاد المنذر بن ماء السماء ملكا على الحيرة وكان أبو دواد كما قدمنا قيما على خيله ؟  
الذى نميل إليه أن تلك الرواية هشة لا تثبت لنقد ولا تقوى أمام تمحيص .

أما الأصفهانى فقد روى أن أبا دواد مدح الحارث بن همام فأعطاه عطايا كثيرة ثم مات ابن لأبى دواد وهو فى جوار الحارث فوداه ، فمدحه أبو دواد فحلف له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ، ولا يذهب له مال إلا أخلفه فطربت العرب

المثل بجار أبي دواد ، وهذه أيضا قصة يبدو عليها الوهن لأن الحارث يبدو فيها شخصا أهوج سريع الانفعال ، ما إن سمع قصيدة المدح حتى أقسم ليدين كل ميت من البنين وليخلفن كل فائت من المال وكان حريا بالرواة أن ينقلوا إلينا شيئا من قصيدة تفعل هذا الفعل السحري في نفس من قيلت فيه، وهو ما لا نجد له في كتب التراث أثرا.

فليس فيما بين أيدينا من مصادر أبي أبيات يمدح منها أبو دواد الحارث بن همام سوى تلك الأبيات الثلاثة التي ذكرناها سابقا في حديث ناقته الزبء .  
وأما الرواية الثانية التي ذهبت إلى أن جار أبي دواد هو كعب بن مامة الإيادي - ابن عمه- فقد أسندها ابن قتيبة إلى أبي عبيدة وأسندها الأصفهاني أيضا إلى أبي عبيدة فقال : جاور أبو دواد الإيادي كعب بن مامة الإيادي فكان إذا هلك له بعير أو شاه أحلفها .

وهذه الرواية ليست ببعيدة فقد روى الأصمعي في الأسمعيات قصيدة أبي دواد الشهيرة الت مطلعها:

منع النوم ماوى التهمام      وجدير بالهم من لا ينام  
والتي منها بيته الشهير:

لا أعد الإقتار عدما ولكن      فقد من قد رزئته الإعدام  
ومنها يعتب على ابن عمه كعب بن مانه فيقول:

وأتاني تقحيم كعب لى المن      طق أن النكتية الإقحام  
فى نظام ما كنت فيه فلاير      زتك شيء ، لكل حسناء نام

ولقد رابنى ابن عمى كعب أنه قد يروم ما لا يرام

فإذا صح أن جار أبى دواد المقصود هو ابن عمه كعب بن مامة الايادى ، فلا يبعد أن يكون هذا العقاب الذى ورد فى هذه القصيدة الأصمعية مما يكون بين الجيران والأصبه ممن يعرف بعضهم أقدار بعض، ولا يبعد أن تكون هذه القصة أعنى قصة مجاورة أبى دواد لكعب بن مامة وتعهد كعب بأن يخلف ما يتلف من ابن أبى دواد- مما ألف الرواة أن يصطنعوه إذا ما اشتهر علم من الأعلام بصفة من الصفات ، وكان كعب بن مامة ممن سار ذكرهم فى بلاد العرب واشتهروا بالجود والكرم فقد أتر رفيقة النمى بالماء ومات عطشا فضرب بالمثل فى الكرم والتضحية (مجمع الأمثال ١/١٦٢) ومن ثم فلا يبعد أن يسند الرواة إليه كثيرا مما يقابلهم من قصص المرؤءة والشهامة .

وأما القصة الثالثة التى جعلت المنذر بن ماء السماء هو جار ابى دواد المعنى فى البيتين المنسوبين الى قيس بن زهير وطرفه فقد ساقها الأصفهانى فقال :

" كان أبو دواد الإيادى الشاعر جارا للمنذرين ماء السماء .

وإن ابا دواد نازع رجلا بالحيرة من بهراء، يقال له رقبة بن عامر بن كعب بن عمرو، فقال له رقبة : صالحنى وحالفنى .

فقال أبو دواد : فمن أين تعيش إياد إذا ، فوالله لولا ما تصيب من بهراء لهلكت ، وانصرفا على تلك الحال .

ثم إن أبا دواد اخرج بنين له ثلاثة فى تجارة الى الشام ، فبلغ ذلك رقبة البهرانى ، فبعث الى قومه فأخبرهم بما قال له أبو دواد عند المنذر، وأخبرهم أن

القوم ولد أبى دواد ، فخرجوا إلى الشام، فلقوهم فقتلوهم ، وبعثوا برءوسهم إلى رقبة فلما انته الرءوس صنع طعاما كثيرا، ثم أتى المنذر ، فقال له : لقد اصطنعت لك طعاما كثيرا، فأنا أحب أن تتغذى عندى ، فأتاه المنذر وأبو دواد معه ، فبينما الجفان ترفع وتوضع ، جاءتة جفنة عليها بعض رءوس بنى ابى دواد، فوثب وقال : ابيت اللعن ! إنى جارك ، وقد ترى ما صنع بى ، وكان رقبة ايضا جارا للمنذر. فوقع المنذر منهما فى سوءة ، وأمر برقبة فحبس ، وقال لأبى دواد : أما يرضيك توجيهى بكتيبتى الشهباء والدوسر إليهم ؟

قال : بلى .

قال : قد فعلت . فوجه إليهم بالكتيبتين .

فلما بلغ ذلك رقبة قال لامرأته : ويحك ! ألحقى بقومك فأنذريهم ، فعمدت الى بعض إبل زوجها فركبته ، ثم خرجت حتى أتت قومها ، فلما قربت منهم تعرت من ثيابها ، وصاحت وقالت : أنا النذير العريان ، فأرسلتها مثلا ، فعرف القوم ما تريد ، فصعدوا إلى أعالي الشام ، وأقبلت الكتيبتان فلم تصيبا منهم أحدا ، فقال المنذر لأبى دواد : قد رأيت ما كان منهم، وأنا أدى كل ابن لك بمئتى بعير، فأمر له بست مئة بعير، فرضى بذلك ، فقال فيه قيس بن زهير العيسى :

سأفعل ما بدا لى ثم آوى إلى جار كجار أبى دواد

وهذه القصة الثالثة كما هو واضح فيها كثير من الغلو، وإن كانت توافق كثيرا من الطبائع العربية الحادة، ولا تخالف الواقع التاريخي الذي عاش فيه أبو دواد مقربا من المنذر بن ماء السماء والجمع بين الروايات الثلاث ليس عسيرا .  
فلنا أن نتخيل أن أبا دواد وقومه نزلوا بالحارث بن همام في أول مقدم قبيلتهم من البحرين مهزومين مطرودين على أيدي قبيلة عبد القيس، فأكرم وفادتهم وقضى حاجاتهم وأخلف بعض ما تلف من أموالهم .

وقد مدحه أبو دواد على حسن جواره فتناقل الرواة بعض هذا المدح الذي لم يعد له بين أيدينا وجود يذكر باستثناء تلك الأبيات الثلاثة التي اشرنا إليها عند حديثنا عن ناقة ابي دواد (الزبياء) التي بركت في فناء الحارث بن همام ، ثم زالت تلك العلاقة لأية أسباب طرأت أو إذا صح ما روى من أن الحارث كلف محاربة بنى إياد لحساب ملك الفرس "قباد" . فلما عاد الملك إلى المنذر عاد بنو إياد ليعيشوا في كنفه .

وأما أن يكون جار أبي دواد المقصود هو كعب بن مامة فهذا ما نستبعده لكونه ابن عمه . والعرب لا تصف الكريم ذا المروءة بأنه (جار) فلان إلا إذا كان الجوار هو العلاقة الوحيدة بينهما كما هو الحال بين أبي دواد والمنذر، أو أبي دواد والحارث . ولعل أبا دواد مدح الثلاثة فتناقل الرواة أخبار مديحة إياهم ثم سمعوا بقصة دفع أحدهم دية أولاده أو إخلاف ما تلف من ماله، فجعلوا كعبا مرة وجعلوا الحارث مرة ثانية وجعلوه المنذر مرة ثالثة .

وكل من الثلاثة من ممدوحى أبى دواد وليس الجوار بالأمر اليسير عند العرب فقد كان من مفاخرهم حماية الجار وبخاصة إذا كان ذلك الجار غريبا لاذ يقوم أو استعاذ بهم أو استنصرهم فقد كانوا يبذلون فى سبيل حمايته كل ما يستطيعون من قوة .

وقد كان أبو دواد نفسه ممن يرعون حرمة الجار فهو يفخر بذلك فيقول عن قومه (١) :

أرى جارنا آمنا وسطنا يروح بعقد وثيق السبب  
إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب

والعناج عروة فى أسفل الدلو من باطن تشد إلى أعلى الكرب، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو حتى لا يقع فى البئر، والكرب هو الحبل الذى يربط به الدلو وقد يثنى ويثلى تقوية له، فهو يعنى بهذا شدة عنايتهم بالعهد الذى يربطهم بجيرانهم .

وفى موقف آخر نرى أبا دواد يعاتب بعض قومه من بنى كعب وعمرو فيذكر أنهم لم يحفظوا له ما ينبغى من حقوق الجوار فيقول (٢) :

كنت جارا لكم فأشتمتم النا س بى اليوم آل كعب وعمرو  
شركم حاضر ودركم در فردوس من الأرانب بكسر

١ . انظر ابن قتيبة (المرجع رقم ٤) ، ص ٢٤٠ .

٢ . انظر المرجع رقم (٦) ، ص ٥٢٢ .

فلا غرو إذا كان أبو داود يرمى للجوار هذه المنزلة، أن يكون هو نفسه خير مداح لمن يحسن جواره ويرعى حرمة سواء أكان ذلك الجار هو سيدة ومليكة المنذر أو ابن عمه كعبا أو الحارث بن همام.

شاعرية أبي داود :

تدل النصوص التي وصلت إلينا من شعر أبي داود ، ومن أقوال نقاد الشعر ورواته عنه على أنه كان شاعرا مجيدا مطبوعا. إلا أن الرواة لم يتوسعوا فى رواية شعره لأن لغته ليست بنجدية كما نقل ابن قتيبة عن الأصمعي .

ويروى ابن قتيبة أيضا أن الحطيئة حين سئل من اشعر الناس؟ قال : الذى

يقول:

لا أعد الاقتار عدما ولكن      فقد من قد رزئته الإعدام  
من رجال من الأقارب فادوا      من حذاق ، هم الروس الكرام  
فيهم للملايين أناة      وعُرام إذا يراد العرام  
فعلى إثرهم تساقط نفسى      حسرات ، وذكرهم لى سقام

وهذه القصيدة أجود شعره، ويستجاد منها قوله فى صفة إبله:

إبلى الإبل لا يحوزها الرا      عون، مج الندى عليها المدام  
سمنت فاستحش أكرعها، ال      نى نى ولا السنم سنم  
فإذا أقبلت نقول : إكام      مشرفات ، بين الإكام إكام  
وإذا أعرضت تقول : قصور      من سنماهيح فوقها أطام

وإذا ما فجئتُها بطن غيث قلت : نخل قدحان منها صرام  
فهى كالبيض فى الأدايح، مايو هب منها لمستتم عصام

وقد شهد لأبى دواد فى مقدرته الفذة على وصف الخيل كل من الأصمعى وأبى عبيدة وهما من أعلام اللغويين المتذوقين فقد قال الأصمعى فيما يروى صاحب الأغانى : "ثلاثة كانوا يصفون الخيل، لا يقاربهم أحد : طفيل، وأبو دواد، والجعدى فأما أبو دواد فإنه كان على خيل المنذر (بن ماء السماء) • وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل الى أن كبر، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من اشعار الشعراء فأخذ عنهم".

وقال أبو عبيدة : " أبو دواد أوصف الناس للفرس فى الجاهلية والإسلام وبعده طفيل الفتوى والنابعة الجعدى".

ونقل صاحب الأغانى عن ابن الأعرابى قوله : "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبو دواد" •

وقد شهد لأبى دواد بالقدرة الفنية علم لغوى آخر هو أبو الأسود الدؤلى فقد روى الأصفهانى أن الإمام عليا كرم الله وجهه كان من عادته أن يفطر الناس فى رمضان، وكان من عادته إذا فرغ الناس من العشاء، أن يتكلم معهم قليلا أو كثيرا • وحدث ذات ليلة أن اختصم الناس حتى ارتفعت أصواتهم فى اشعر الناس •

قال الإمام على لأبى الأسود الدؤلى : قل يا أبا الأسود •

فقال أبو الأسود الدؤلى - وكان يتعصب لأبى ال دواد - : اشعر الناس الذى

يقول:

ولقد اغتدى يدافع ركنى      أهو ذى ذوميعة إضريح  
مخلط مزبل مكرمفر      منفع مطرح سبوح خروج  
سلهب شرجب كأن رماحا      حملته وفى السراة دموج

فهو يصف حصانه فى هذه الأبيات ذات الكلمات الغليظة بأنه حصان  
متمرس يحسن الجرى ويتفنن فيه، ويحسن مسابقة الخيل، وينتقل فى جرية من  
حال إلى أحسن حال منها.

وقد نقل الأصفهاني أيضا شهادة الحطيئة لأبى دواد بأنه أشعر الناس تلك  
التي ذكرها ابن قتيبة، ومن مجموع هذه الشهادات يظهر لنا أن أبا دواد كان يتمتع  
بسمعة فنية طيبة حتى بعد عصره بعهد طويل.

أسرة أبى دواد :

يبدو أن أبا دواد كان مزواجا وكان ذا أسرة كبيرة، فقد سبق أن ذكرنا أن  
ثلاثة من أبنائه قتلهم رقبة البهرائى ووداهم المنذر بن ماء السماء كما سبق أن  
أشرنا إلى أنه كنيته من المرجح أن يكون قد كنى بها بعد أن كبر ابنه دواد الذى  
أصبح بدوره شاعرا، وقد روى له صاحب المؤتلف والمختلف أبياتا قال إنه رثى بها  
أخاه هى قوله<sup>(١)</sup> :

فبات فينا وأمسى تحت هادية      يا بعد يومك من ممسى واصباح  
لا يدفع السقم إلا أن يسقيه      ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح

١ . انظر المرجع رقم (٣) ص ١١٦ .

لا يصحب الغي إلا حيث فارقه إلى الرشاد ولا يصغى إلى اللاجي  
إلا أن الأصفهاني في جعل هذه الأبيات في رثاء أبيه أبي دواد وروى منها  
ببيتين فقط هما:

فبات فينا وأمسي تحت هائرة ما بعد يومك من ممسى واصباح  
لا يدفع السقم إلا أن نغديه ولو ملكنا مسحنا السقم بالراح  
وواضح أن فيهما تصحيفا أو تحريفا .

ومما جعلنا نقول أن أبا دواد كان مزوجا تلك الروايات التي ساقها من  
أرخوله عن خلفاته مع زوجاته .

فقد روى أن زوجة أم دواد ماتت وتزوج غيرها وكان دواد قد أصبح شابا فتيا  
فأولعت به زوجة أبيه التي كانت مخطبة عند أبي دواد ، فأرادت أن تكيد لدواد  
فأمرت أباه أن يطرده من منزله فخرج به وقد اردفه خلفه الى أرض جرداء ليس  
فيها شيء ، فألقى سوطه متعمدا وقال : أي دواد • أنزل فناولني سوطي، فنزل،  
فدفع أبو دواد بعيرة بعيدا عنه ثم قال يخاطبه :

أدواد إن الأمر أصبح ما ترى فانظر دواد لأي أرض تعمد؟  
فقال له دواد : على رسلك .

فتمهل في سيره فقال له دواد :

وبأى ظنك أن أقيم ببلدة جرداء ليس بغيرها متلدد؟

فرجع إليه وقال له : أنت والله أبني حقا • ثم رده الى منزله . وطلق امرأته .

وروا أنه كان متزوجا من امرأة يقال لها أم صبير فكانت تلومه على إنفاقه المال في المكرمات وبذله للأقربين والمحتاجين فلم يكن يسمع لومها فساءت بينه وبينها العلاقات حتى هجرته وفي هذه الزوجة يقول من قصيدة له :

في ثلاثين ذعدعتها حقوق      أصبحت أم حبتر تشكوني  
زعمت لي بأنني أفسد الما      ل وأزويه عن قضاء ديوني  
أملت أن أكون عبداً لمالي      وتهنا بنافاع المال دوني  
ويقول فيها من قصيدة أخرى:

حاولت حين صرمتني      والمرء يعدز لا محاله  
والدهر يلعب بالفتى      والدهر أروغ من تعاله  
والمرء يكسب ماله      والشح يورثه الكلاله  
والعبد يقرع بالعصا      والحر تكفيه المقالة  
والسكت خير للفتى      فالحين من بعض المقالة

وقد روى الأصفهاني ما يدل على أن أسرة أبي دواد ربما عقدت فيما بينها جلسات لمطارحة الشعر فمن ذلك ما رواه فقال:

بيننا أبو دواد وزوجته وابنه وابنته على ربة، وإياد إذ ذاك بالسواد ، إذ خرج ثور من أجمة ، فقال أبو دواد :

وبدت له أذن توج      س حرة وأحم وأرد  
وقوائم عوج لها      من خلفها زمع زوائد

كمقاعد الرقباء للضرب      رباء أيديهم نواهد  
ثم قال : أنفذى يا أم دواد ، فقالت :

وبدت له أذن توجـ      س حرة وأحم معلق  
وقوائم عوج له      من خلفها زرع معلق  
كمقاعد الرقباء للضرب      رباء أيديهم بألق  
ثم قال : أنفذ يا دواد ، فقال :

وبدت له أذن توجـ      س حرة وأحم مرهف  
وقوائم عوج لها      من خلفها زرع ملفف  
كمقاعد الرقباء للضرب      رباء أيديهم تلقف  
ثم قال : أنفأى يا دوادة •

قالت : وما أقول مع من أخطأ .

قالوا : ومن أين أخطأناه ؟

قالت : جعلتم له قرنا واحدا ، وله قرنان .

قالوا : فقولى .

قالت :

وبدت له أذن توجـ      س حرة وأحمتان  
وقوائم عوج لها      من خلفها زرع ثمان  
كمقاعد الرقباء للمضرب      رباء أيديهم دوان

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

اللغة - توجس : تسمع إلى الصوت الخفى ، وحرّة : صادقة السمع مرهفة .

والأحم : القرن الأسود .

والوارد : الطويل .

الزعم : الشعر الذى فى مؤخرة رجلي الشاه أو الظبى ، واحدته زمعة .

الرقباء : الذين يمسكون عيونهم وينظرون سمات القداح . والضرباء : الذين

يضربون القداح .

يريد بالانفاذ هنا : محاكاة شعره مع تغيير الكلمة الأخيرة منه، تمرينا على

القول ، والتمرس بالقوافى .

فهل تكون هذه السطور دعوة للقراء والباحثين لبذل مزيد من الجهد لتجلية

تراثنا العظيم المجهول ؟

## جانب مجهول من شخصية معروفة

### ابن خلكان شاعراً

حين يظلم التاريخ علماء من الأعلام فيضعه حيث طارت شهرته ، ويغفل وضعه في مجالات أخرى برع فيها وأبدع ، يكون هذا مقبولاً على مريض ، فمثلاً يقدم التاريخ إلينا ابن سينا على أنه طبيب بارع ، وأحياناً على أنه فيلسوف ونادراً ما يقدمه إلينا على أنه شاعر مجيد أيضاً .

ولكن حين يظلم التاريخ علماء من الأعلام ، ويكون هذا العلم مؤرخاً صناعته تدوين التاريخ ، نجد أنفسنا أمام موقف غريب يثير الضحك الحزين أو الحزن الضاحك إن جاز التعبير .

فمن المعروف أن كتاب “ وفيات الأعيان ” – بفتح الواو والفاء – لابن خلكان من أشهر كتب التراجم في تراثنا العربي ، ذلك أنه تميز من دونها بميزات عديدة منها أنه ترجم لمساحات زمنية واسعة قد تصل إلى ستة قرون من الزمان ، ومنها أنه كان يهتم بذكر تواريخ الميلاد والوفاة ، ومنها أنه كان يتحرى الصدق في الروايات التي ينقلها عن سبقوه ، ومنها أنه كان يذكر البارعين المشاهير في مجالات مختلفة ، فلا يترجم لفئة دون فئة كما فعل بعض سابقه ممن اهتموا بالترجمة للشعراء فقط أو للمفسرين فقط أو لرجال الحديث فقط .

وقد نال ابن خلكان عناية تليق بمكانته كمؤرخ متميز بين المؤرخين حققها بكتابه ذاك ، وبمنهجه العلمي السديد الذي ألتزمه فيه ، وقد حظي كتابه باهتمام لاحقيه من المؤرخين فنهلوا من معينه ، واعترفوا له بالفضل والسبق والإجادة ، وإن كان لم يسلم - كغيره من العلماء - من الطعن والغمز سواء في منهجه العلمي أو على مستوى سلوكه الشخصي ، ولعل هذا راجع إلى الحسد الذي أشار الإمام الغزالي في كتابه " أصناف المغرورين " إلى أنه يكون بين العلماء .

ولعل الجانب المجهول من حياة ابن خلكان هو كونه شاعراً بل لقد كان شاعراً رقيقاً وظريف المعاني ، جيد السبك ، مستريح القافية ، تبدو لغته الشعرية في غاية الروعة والرقّة ، وليت التاريخ - الذي كان صناعته - قد حفظ لنا هذا الجانب المشرق من جوانب شخصية ابن خلكان .

وابن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأربلي ويكنى بأبي العباس ، قال عنه الزركلي في الإعلام (٢٢٠/١) هو المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر كتابه " وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان " أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً .

ولد في أربل بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي ، وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة ، وتولى نيابة قضائها وسافر إلى دمشق ، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام ، ثم عزل بعد عشر سنين ، فعاد إلى مصر وأقام بها سبع سنين ثم أعيد قاضياً للشام ، ثم عزل بعد مدة وتفرغ للتدريس في كثير من مدارس دمشق حتى توفي بها سنة إحدى وثمانين وستمائة ، وكان مولده سنة ثمان وستمائة .

ومن النماذج القليلة التي أوردها صاحب " الوافي بالوفيات " في ترجمته لابن خلكان ، والتي أثبتتها في مقدمة المجلد الأول محقق كتاب " وفيات الأعيان " نستطيع أن نتبين شاعرية ابن خلكان التي لا يعرفها الكثيرون ، ونستطيع استنتاج أن هذا المؤرخ الفذ ، لو أتيح لنتاجه الشعري أن ينتشر لفاق كثيراً من كبار الشعراء الذين نعرفهم وقد يكون من السائغ أن نسأل عن سبب خمول ذكر ابن خلكان شاعراً ، ولكن المؤكد أننا لا نملك إجابة قاطعة على هذا السؤال وإن كانت هناك احتمالات يمكن أن نقدمها :

#### الاحتمال الأول :

أن الرجل كان عالماً كبيراً بدأ حياته بسماع صحيح البخاري بمدينة أربيل من ابن مكرم الصوفي ، وتلمذ لعدد كبير من مشاهير العلماء الذين أدركهم كالمؤيد الطوسي وعبد المعز الهروي وغيرهما ، كما انه اشتغل بالتدريس والتأليف وقد شاعت في تراثنا القديم فكرة تذهب إلى التعارض بين العلم والشعر استشهد عليها القدماء بقول القائل ( وينسب أحياناً للإمام الشافعي )

ولولا الشعر بالعلماء يزري      لكنت اليوم أشعر من لبيد

ومرجع هذه الفكرة إلى تلك المفاهيم الخاطئة التي سادت العقلية العربية وربطت بين الجن وقرض الشعر. الأمر الذي استوجب أن ينفي القرآن الكريم الشاعرية عن محمد ﷺ لأن الوحي منزل من عند الله ﷻ ، وما يوحي به الشياطين لأوليائهم هو الكذب والعبث ، فكان من مظاهر التقوى أن تنزه العلماء عن قول الشعر وهذا خطأ جسيم .

### الاحتمال الثاني :

أن الرجل عمل بالقضاء سنين عدداً ، ولنصب القاضي أو قاضي القضاة هيبته ورهبته التي تمنع شاغله من أن يكون كآحاد الناس ، وتتطلب منه قدراً من الوقار الذي يلائم منصبه الديني الخطير .

### الاحتمال الثالث :

أن الرجل وقد عرف عنه أنه عاش ميسور الحال كريم الموضع ، عظيم المكانة في قلوب القيادة الحاكمة ، وفي قلوب الجماهير ، لم يكن راغباً في تحقيق شهرة عن طريق الشعر ، فكان يستمع إلى الشعراء يمدحونه ، وقد يكافئهم ، وإذن فمن العسير عليه أن يقف مادحاً بين يدي ملك أو وزير أو أمير .

ويؤيد أحد هذه الاحتمالات ، أو يؤيدها جميعاً ، أن النماذج التي بين أيدينا من شعر الرجل كلها من الشعر الوجداني العاطفي الرائع لا تشتم منها رائحة مدح ولا تلمس فيها أثراً للسياسة .

ويستطيع قارئ شعر ابن خلكان أن يلحظ ملمحين بارزين من ملامح شعره

هما :

أولاً : التضمين .

ثانياً : سهولة العبارة مع جودة المعنى .

أما التضمين فهو إيراد اقتباس بنصه ووضعه في القصيدة بحيث يبدو كما لو كان جزءاً منها وهو ليس له ، وقد سبقه في هذا كثيرون ، ولكن التضمين نادراً ما يكون دقيقاً رقيقاً على النحو الذي نجده عند شاعرنا .

فمن ذلك قوله يصف ثلة من الغيد يلهون ويسبحن في غدير مياه حيث يقول :

وسرب ظباءٍ في غديرٍ تخالهم  
يقول عدولي والغرام مصاحبي  
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى  
بدوراً بأفق الماء تبدو وتغربُ  
أمالك عن هذي الصبابة مذهبُ؟  
فقلت له " ذرهم يخوضوا ويلعبوا"  
( المطلول : المسفوك بلا ثمن )

فهو هنا يضمن شعره جزءاً من آية قرآنية كريمة :

﴿ فَذَرَهُمْ تَخُوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ (١)  
والصورة الشعرية مع ذلك متماسكة جيدة التركيب ، فقد شغفه حب أولئك  
الغيد ، وهن لاهيات عنه عابثات بمشاعره فتخيل هو وتخيل عدوله أن الماء الذي  
يسبحن فيه هو من دمه الذي سفكه عشقه إياهن .

ومن ذلك تضمينه للقول المأثور في قوله يصف غلاماً :

انظر إلى عارضه فوقه لحاظه ترسل منها الحتوفُ  
تشاهد الجنة في وجهه لكنها تحت ظلال السيوفُ

ومنه في نفس المعنى وهو يضمن من القرآن الكريم :

لما بدا العارض في حده بثرت قلبي بالنعيم المقيمُ

وقلت هذا عارضٌ ممطرٌ فجاءني فيه العذاب الأليمُ

ويقول مضمناً شطر بيت لأبي تمام :

كم قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغضّ دوحة آس

لعذاره الساري العجول بخده "ما في وقوفك ساعةً من باس"

فالشطر الثاني من البيت الثاني ، هو الشطر الأول من مطلع قصيدة مشهورة

وقف أبو تمام يمدح فيها الخليفة العباسي فقال :

ما في وقوفك ساعةً من باسٍ تقضي حقوق الأربح الأدراسِ

ويروي الرواة أنه لما وصل إلى قوله في وصف مناقب الخليفة :

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في نكاء ايباس

قال له بعض الجالسين من المنافقين : كل من شبهت الخليفة بهم أقل منه

شأناً ، فأطرق أبو تمام ثم ارتجل مباشرة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنيراس

على أن لابن خلكان أشعاراً فريدة في حسنها ، معانيها مبتكرة ، والتمكن

فيها من الموهبة واضح ، فمن ذلك قوله يصف معاناته بعد فراق الأحباب :

وما سر قلبي منذ شطت بك النوى نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متصرفٌ

ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته سوى ذلك الماء الذي كنت أعرفُ

فالبيت الثاني من هذين البيتين غاية في دقة وصف مشاعر المحب المهجور ، حين تسود في وجهه الدنيا ويتساوى عنده الحزن والفرح ويصبح في حالة كانهدام الوزن أو هي أسوأ ، فيتغير لون الأشياء ويتفق طعمها ، بل ربما تفقد حواسه القدرة على التمييز .

ومن ذلك قوله :

كأنني يوم بان الحي من أضـم  
ورقاء ظلت لفقـد الإلف ساجعةً  
يا جبرة الحي هل من عودة فعسى  
إذا ظفرت من الدنيا بقـربكم  
والقلب من سطوات البين مذعور  
تبكي عليه اشتياقاً وهو مأسور  
يفيق من نشوات الشوق مخمور  
فكل ذنب جناه الدهر مغفور

إن ابن خلكان عاشق مقيم ، ومحب مدله موله ، ولكن شعره العاطفي يختلف عن شعر غيره من المحبين الشعراء ، فهو يتغزل في محبوبه فيبتكر المعاني ابتكاراً ، ويصطنع الصور الفنية فيحكم صوغها ، ثم هو بعد ذلك لا يتهتك ولا يستعطف ، ولا يتذلل ، بل يبث محبوبه أشواقه وهيامه مرتفع القامة أو قل أنه لا يتذلل لمن يتذلل بل يتعلل بالذكرى ، ويرتوي بسيرة المحبوب الذي هاجر ، كل ذلك في ثوب قشيب من الصور وقصيدته التالية خير مثال مستدل به على أنه كان حرياً

بشعر هذا الشاعر أن يكون له صدىً بعيد المدى لولا أن طغت عليه شهرته كقاض ومؤرخ ، وفي هذه القصيدة يقول :

أي ليلٍ على المحب أطالهُ  
يزجر العيسَ طاويماً يقطع المَهْمَه  
أيها السائقُ المُجدِّ ترفقْ  
وأنْخُها هُنَيْهَةً وأرحها  
لا تطل سيرها العنيف فقد برّح  
سائقُ الظعن يوم زَمَّ جمالهُ  
عسفاً سهوله ورماله  
بالمطايا فقد سئمت الرحالة  
قد براها السرى وفرط الكلالة  
بالصَّب في سَراها الإطالة

إن الشاعر في هذه الأبيات يصف حالة الإبل التي نقلت متاع المحبوب وأهله وهاجرت بهم إلى بلاد لا يعلمها ، وهو هنا يناشد سائق الإبل أن يترفق بهذه الإبل الجائعة الكليلة المرهقة التي لا تستريح ، بل تجد في سيرها كان لها غايةً تريد أن تبلغها سريعاً فهي تصل الليل بالنهار حتى سئمت الارتحال والسير . هل يصف الشاعر هنا حالته هو نفسه ؟ ويتخذ من الحالة النفسية للإبل معادلاً موضوعياً لآلامه النفسية لابد أن الأمر كذلك ، فقد أسفر الشاعر في البيت الأخير عن التوحد

التام بينه وهو الصب المغرم وبين الإبل ، فالإبل تسير وتتألم وهو أيضاً يتألم كلما طال بها السير واشتد بها العذاب .

ثم ينتقل الشاعر إلى خطاب سائق الإبل لعله يرق لحاله فيعود بالمحبوب فيصف لنا نفسه بأنهم تركوه حليف الوجد والهـم يطوف بديار المحبوب الخالية يندب أيامه وذكرياته ويسأل هذه الأطلال التي استحالت خراباً عن محبوبه ، وهو يدرك أن الأطلال المحيلة لن تجيب له سؤالاً ، ولكنه يقنع نفسه بمجرد الوقوف عندها والتأمل فيها ويذرف الدموع غزارة حسرة وألماً على حاله:

وتـركتم وراءكم حلف ووجد  
يسأل الريح عن ظباء المصلى  
ومحال من المحيل جواب  
هذه سنة المحبين يـكون  
يا ديار الأحباب لا زالت الأذ  
وتمشي النسيم وهو على  
أين عيشٌ مضى لنا فيك ما أس  
حيث وجه الشباب طلق نضير  
نادباً في محلكم أطلاله  
ما على الريح لو أجاب سؤاله  
غير أن الوقوف فيه علالة  
على كل منزل لا محالة

مُعٌ في تـرب سـاحتك مـذالـة  
في مغانـيك سـاحباً أذـيالـه  
سـرع عـنا ذهابـه وزوالـه  
والـتصـايـي عـصـونه مـيالـة

إن الشاعر يتحسر على ذكرياته في هذه الأماكن حتى إنه ليتمنى أن يعيش  
صورة ماضيه ولو في منامه حيث يستمتع للحظات بصور فانتة ما أكثر ما استمتع  
بها في عالم الحقيقة :

ولنا فيك طيب أوقات أنس  
وبأرجاء جوك الرحب سرب  
من فتاة بديعة الحسن ترنو  
ورخيم الدلال حلو المعاني  
ليتنا في المنام نلقى مثاله  
كل عين تراه تهوى جماله  
من جفون لحاظها مغتالة  
تتننى أعطافه مختالة

أولم نقل إن شعر هذا الشاعر كان خليقاً بأن يهين له مكاناً مرموقاً بين  
الشعراء المجيدين ؟ وكما رأينا فإن معظم النماذج التي وصلتنا من شعره وجدانية لا  
تتزلف حاكماً ولا تنافق أميراً ولا وزيراً ولا كبيراً ، بل إنه يصف - فقط - معاناته  
العاطفية الخاصة ولا يتبقى إلا أن نشير إلى الاضطراب الذي يرتبط بضبط اسم ابن

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

خلكان ، فقد روى صاحب “روضات الجنات” أن اسمه ينطق بفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة ، أو بضم الخاء وفتح اللام المشددة ، أو بكسر اللام والخاء جميعاً وجاء في التاج أنه بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة ، وهو ما نستريح إليه لاتفاق روايتين حوله ، كما أنه يقترب من الأسماء الفارسية وقد سبق أن أشرنا إلى أنه من ذرية البرامكة .

## بن عبدل

اسم الشهرة الذي عرف به هذا الشاعر هو الحكم بن عبدل الأسدي ثم الغاضري الكوفي. أما تمام اسمه ونسبه فهو الحكم بن عبدل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة ابن عقال بن بلال بن سعد بن حبال بن نصر بن غاضرة ابن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة الأسدي ثم الغاضري الكوفي وهو شاعر مشهور القول، مجيد هجاء. نفاه ابن الزبير من العراق لما نفى عنها عمال بني أمية وقدم دمشق. وكان له من عبد الملك بن مروان موضع. وقال ابن ماکولا: هو الشاعر الأعرج، كوفي مشهور. قال غيره قال: كان يأتي ابن بشر فيقول له: أخمس مائة أحبُّ إليك العام، أم ألف في قابل؟ فيقول: ألف في قابل. وإذا أتاه من قابل، قال له: ألف أحبُّ إليك العام أم ألفان من قابل؟ فيقول: ألفان من قابل، قال: فلم يزل كذلك حتى مات ابن بشر ولم يعطه شيئاً. وقال صاحب الأغاني: كان أعرج أحذب لا تفارقه العصا. فترك الوقوف بباب الملوك. وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله، فلا يحبس له رسول ولا تؤحَّر له حاجة. فقال في ذلك يحيى بن نوفل:

عصا حكمٍ في الدار أوَّلٍ داخلٍ ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب  
وكانت عصا موسى لفرعون آيةً... فهذي لعمر الله أدهى وأعجب  
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب في المرضاة منها ويرهب

وشاعت هذه الأبيات بالكوفة، وضحك منها الناس. فكان الحكم يقول ليحيى: يا بن الزانية، ما أردت من عصاي حين صيرتها ضحكة؟ واجتنب أن يكتب عليها كما كان يفعل أولاً. وكان له صديق أعمى يدعى أبو عليّة، وكان ابن عبدل قد أقعد. فخرجا ليلة من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما والحكم يحمل وأبو عليّة يقاد، فلقيهما صاحب العسس بالكوفة وأخذهما فحبسهما، فلما استقرا في الحبس، نظر الحكم إلى عصاه موضوعة بجانب عصا أبي عليّة فضحك وقال:

حبسي وحبس أبي عليّة ..... من أعاجيب الزمان  
أعمى يقاد ومقعدٌ ..... لا الرّجل منه ولا اليدان  
هذا بلا بصر هناك ..... ، وبي يخبُّ الحاملان  
يا من رأى ضبَّ الفلاة ..... قرين حوتٍ في مكان  
طرفي وطرف أبي عليّة ..... - دهرنا - متوافقان  
من يفتخر بجواده ..... فجوادنا عكّازتان  
طرفان لا علفاهما ..... يشرى ولا يتصاولان

وقال أيضاً من أبيات:

ففي حالتينا عبرةٌ وتفكُّرٌ ..... وأعجب منه حبس أعمى ومقعد  
كلانا إذا العكّاز فارق كفه ..... يخرُّ صريعاً أو على الوجه يسجد  
فعكّازه تهدي إلى السُّبل أكمهاً ..... وأخرى مقام الرّجل قامت مع اليد

وكان بالكوفة امرأةً موسرة، وكان لها على الناس ديون بالسَّواد. فاستعانت بابن عبدل في دينها، وقالت: إني لست بزواج. وجعلت تعرِّضُ بأنَّها تزوجه نفسها. فقام ابن عبدل في دينها حتى اقتضاه. فلما طالبها بالوفاء، كتبت إليه:

سيخطئك الذي حاولت مني ..... فقطع حبل وصلك من حبابي  
كما أخطاك معروف ابن بشر ..... وكنت تعدُّ ذلك رأس مال  
وضرب الحجاج البعث على المحتملين ومن أنبت من الصبيان. وكانت  
المرأة تجيء إلى ابنها فتضمنه وتقول: يا ابني جزعاً عليه، فسُمِّي ذلك الجيش جيش  
با ابني. وأحضر ابن عبدل وجرَّد، فوجد أحذب أعرج، فأعفي من ذلك فقال:

لعمري لئن جرَّدتني فوجدتني ..... كثير العيوب سيء المتجرَّد  
فأعفيتني لما رأيت زمانتي ..... ووفقت مني للقضاء المسدَّد  
ولست بذي شيخين يلتزمانه ..... ولكن يتيماً ساقط الرجل واليد  
وخرج ليلةً وهو سكران، محمولاً في محفَّة، فلقيه صاحب العسس، فقال له  
من أنت؟ فقال له: يا بغيض، أنت أعرف بي من أن تسأل عني، اذهب إلى شغلك  
فإن اللصوص لا يخرجون في الليل في محفَّة، فضحك الرجل وانصرف. وكانت له  
جارية سوداء، فولدت له إبناً أسود، وكان أعرم الصبيان فقال فيه:

يا ربَّ خال لك مسودَّ القفا ..... لا يشتكي من رجله مسَّ الحفا  
كأنَّ عينيه إذا تشوَّفا ..... عينا غرابٍ فوق نيقٍ أشرفا  
واختصم البارقي وامرأة يوما إلى الشعبي، فقضى على البارقي وأنشأ يقول:

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها  
فتنته بقوام ... ويخطي حاجبيها  
وبنان كالمداري ... وبحسن مقلتيها  
كيف لو أبصر منها ... نحرها أو ساعديها  
لصبا حتى تراه ... ساجداً بين يديها  
بنت عيسى بن جراد ... ظلم الخصم لديها  
فقضى جوراً علينا ... ثم لم يقض عليها  
قال للجلواز قدمها ... وأحضر شاهديها

وروى صاحب أخبار القضاة - (ج ١ / ص ٢٤٧) قال : جاء الشعبي يوماً إلى قصر عبد الملك بن مروان، فقرع الباب، فقال الأذن: من هذا ؟ فقال: الشعبي ... فقال الأذن :

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف إليها  
فقال الأذن: فتنته بقوام قال الشعبي: ويخطي حاجبيها قال الأذن: كيف لو أبصر منها قال الشعبي: خصرها أو معصمها قال الأذن: لصبا حتى تراه. قال الشعبي: ساجداً بين يديها.  
قال الأذن: تلکم بنت جراد. قال الشعبي: ظلم الخصم لديها. قال الأذن: قال للجلواز قدمها.

قال الشعبي: وأحضر شاهديها. قال الأذن: ففضى جوراً علينا. قال الشعبي: ثم لم يقض عليها. ثم ضحك الشعبي: حتى استلقى، ثم قال: والله ما كان من هذا شيء قط. !!

وولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج ثم ولي الإمارة آخر أعرج وفي أحد الأيام خرج الشاعر ابن عبدل - وكان أعرج - فلقى سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله فقال ابن عبدل للسائل:

ألقى العصا ودع التحامل والتمس ..... عملاً فهذي دولة العرجان  
فأميرنا وأمير شرطتنا معاً ..... يا قومنا لكليهما رجلان !!  
فإذا يكون أميرنا ووزيره ..... وأنا، فإن الرابع الشيطان !!  
فبلغت أبياته ذلك الأمير الأعرج فبعث له مائتي درهم وسأله أن يكف عنه.  
وقيل: قدم الحكم بن عبدل واسطاً على ابن هبيرة وكان بخيلاً، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال:

أتيتك في أمر من امر عشيرتي ... وأعلى الأمور المفضعات جسيمها  
فإن قلت لي في حاجتي أنا فاعل ... فقد تلجت نفسي وولت همومها  
فقال الأمير: أنا فاعل إن اقتصدت فما حاجتك قال: غرم لزمنا، قال: كم هو  
قال: أربعة آلاف درهم، قال: نحن مناصفوها، قال: أصلح الله الأمير، أتخاف علي  
التخمة إن أمتها قال: أكره أن أعود الناس هذه العادة، قال: فأعطني جميعها سرّاً  
وامنعني جميعها ظاهراً حتى تعود الناس المنع، وإلا فالضرر واقع عليك إن عودتهم  
نصف ما يطلبون، فضحك ابن هبيرة وقال: ما عندنا غير ما بذلناه لك، فجتا بين

يديه، وقال: امرأتي طالق إن أخذت أقل من أربعة آلاف درهم أو انصرفت وأنا غضبان، فقال: أعطوه إياها قبحه الله فإنه ما علمت حلاف مهين، فأخذها وانصرف.

وقيل لما وقع الطاعون بالكوفة ومات منهم بنو زربن حبيش العامري صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا ظرفاء وبنو عم لهم، فقال الحكم بن عبدل الغاضري يرثيهم:

أبعد بني زرو بعد ابن جندل ... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض  
مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي  
وارتحل الحكم بن عبدل ذات مرة مع عمر بن هبيرة إلى واسط فشكا إليه  
الضيقة فوهب له جارية من جواريه فواثبها ليلة أن صارت إليه تسع مرات  
أو عشرة، فلما أصبح الصباح قالت له: جعلت فداك من أي الناس أنت؟ قال:  
امرؤ من أهل الشام، قالت: بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم!!  
وقال صاحب الأغاني: لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بني  
مروان أخرج ابن عبدل معهم إلى الشام وكان فيمن يدخل إلى عبد الملك ويسمر عنده  
فقال لعبد الملك ليلة يا ليت شعري وليت ربما نفعت \* هل أبصرن بني العوام قد  
شملوا

بالذل والأسر والتشريد إنهم \*\*\* على البرية حتف حيث ما نزلوا  
أم هل أراك بأكناف العراق وقد \*\*\* ذلت لعزك أعداء وقد نكلوا

فقال عبد الملك بن مروان [ ويروون أنه هو قائل هذا الشعر ] :

إن يمكن الله من قيس ومن جرش ومن جذام ويقتل صاحب الحرم  
نضرب جماجم أقوام على حنق ضربا ينكل عنا غابر الأمم  
ودخل ابن عبدل يوما على عبد الملك بن بشر بن مروان فقال أصلح الله  
الأمير رؤيا رأيتها في المنام أقصها عليك قال هاتها فأنشأ يقول :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد \*\*\* في ساعة ما كنت قبل أنامها  
فرأيت أنك جدت لي بوليدة \*\*\* مغنوجة حسن علي قيامها  
وببدره حملت إلي وبغلة \*\*\* شهباء ناجية يصل لجامها  
فسألت ربك أن يثيبك جنة \*\*\* يلقات منها بردها وسلامها  
فقال كلما رأيت عندنا إلا البغلة الشهباء الناجية فإن التي عندنا دهماء  
فارهة

فقال ابن عبدل : امرأتي طالق إن كانت رأيتها إلا دهماء ولكني نسيت !!  
فأمر أن يحمل إليه كل ما ذكر في شعره !!

وقالوا خطب محمد بن حسان الأسدي ابنة لطلبة بن قيس بن عاصم المنقري  
وقد كان ابن عبدل الأسدي أتاه وهو والى خراسان فلم يعطه شيئا فقال يهجوه:  
أباع زيادا سود الله وجهه ..... عقيلة قوم سادة بالدراهم  
لعمرك ما زوجتها من كفاءة ..... ولكنما زوجتها للدراهم  
وما كان حسان ابن سعد ولا ابنه ..... أبوالبحر من أكفاء قيس بن عاصم  
ولكنه رد الزمان على استه ..... وضيع أمر المحصنات الكرائم

له ريقة بخراء تصرع من دنا ..... وتنتن خيشوم الضجيع الملازم  
خذي دية منه تكن لك عدة ..... وروحي إلى باب الأمير فخاصمي  
قالوا: فلما بلغ أهلها شعره أنفوا من ذلك، فاجتمعوا على محمد بن حسان  
حتى فارقها. قال: وكان محمد بن حسان عاملاً على بعض كور السواد، فسأله ابن  
عبدل حاجةً فرده عنها، فقال فيه هذا الشعر وغيره وهجاه هجاءً كثيراً. وكانت المرأة  
التي تزوجها معاذة بنت مقاتل بن طلحة، فلما سمعت ما قال ابن عبدل فيها نشزت  
على زوجها وهربت إلى أهلها، فتوسطوا ما بينهما واقتديت منه بمال وفارقها.  
وحدث النضر بن شميل قال : دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو فقال  
أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشدته قول ابن عبدل :

إنني امرؤ لم أزل - وذاك ..... من الله - أديبا أعلم الأدبا  
أقيم بالدار ما اطمأنت بي الدا ..... ، وإن كنت نازحا طربا  
لا اجتوي خلة الصديق ولا ..... أتبع نفسي شيئا إذا ذهب  
أطلب ما يطلب الكريم من الرز ..... ق بنفسي وأجمل الطلاب  
إنني رأيت الفتى الكريم إذا ..... رغبته في صنعة رغبا  
والعبد لا يطلب العلاء ولا ..... يعطيك شيئا إلا إذا رهبا  
مثل الحمار الموقع السوء لا ..... يحسن مشيا إلا إذا ضربا  
ولم أجد عروة الخلائق إلا ..... الدين لما اختبرت والحسبا  
قد يبرز الخفض المقيم وما ..... شد بعنس رحلا ولا قنبا  
ويحرم الرزق ذو المطية والرح ..... ل ومن لا يزال مغتربا

قال أحسنت يا نضر. ومن شعرا بن عبدل الذي يستشهدون به على حسن خلقه وعفته قوله :

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ..... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرصي  
وأعسر أحيانا فتشدد عسرتي ..... وأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي  
وقالوا: لما وقع الطاعون بالكوفة أفنى بني غاضرة ومات فيه بنو زربن حبيش  
الناصري صاحب علي بن أبي طالب، وكانوا ظرفاء، وبنو عم لهم، فقال الحكم بن  
عبدل الغاضي يرثيهم:

أبعد بني زروبعد ابن جنـدل ..... وعمرو أرجي لذة العيش في خفض  
مضوا وبقينا نأمل العيش بعدهم ..... ألا إن من يبقى على إثر من يمضي  
فقد كان حولي من جياـدٍ وسالم ..... كهولٌ مساعيرٌ وكل فتى بض  
يرى الشح عاراً والسماحة رفعةً ..... أغر كعود البانة الناعم الغض  
وقال أبو الفرج: ونسخت من كتاب أبي محلم قال: سأل الحكم بن عبدل أخو  
بني نصر بن قعين محمد بن حسان بن سعد حاجةً لرجلٍ سأله مسأله إياها؛ فرده  
ولم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنت أراه ذا ورعٍ وقصد  
يقول أمانتي ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد  
فلولا كسبه لوجدت فسلاً ... لئيم الكسب شأنك شأن عبد  
ركبت إليه في رجلٍ أتاني ... كريمٍ يبتغي المعروف عندي

فقلت له وبعض القول نصحٌ ... ومنه ما أسرله وأبدي  
توق دراهم البكري إني ... أخاف عليك عاقبة التعدي  
أقرب كل أصرةٍ ليدنوا ... فما يزداد مني غير بعد  
فأقسم غير مستثنٍ يميناً ... أبا بخرٍ لتتخمن ردي  
وحدث محمد بن سهل الأسدي راوية الكميت : أن الحكم بن عبدل الأسدي  
أتى محمد بن حسان بن سعد التميمي وكان على خراج الكوفة، فكلمه في رجل من  
العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه؛ فقال: أماتني الله إن كنت أقدر أن  
أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً؛ فانصرف ابن عبدل وهو يقول:

دع الثلاثين لا تعرض لصاحبها ... لا بارك الله في تلك الثلاثينا  
لما علا صوته في الدار مبتكراً ... كأشتفان يرى قوماً يدوسونا  
أحسن فإنك قد أعطيت مملكةً ... إمارةً صرت فيها اليوم مفتونا  
لا يعطك الله خيراً مثلها أبداً ... أقسمت بالله إلا قلت آمينا  
قال: فلم يضع له شيئاً مما على الرجل؛ فقال فيه:

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً ... وكنيت أراه ذا ورعٍ وقصد  
يقول أماتني ربي خداعاً ... أمات الله حسان بن سعد  
فما صادفت في قحطان مثلي ... ولا صادفت مثلك في معد  
أقل براعةً وأشد بخلًا ... والأم عند مسئلة وحمد  
نحوت محمداً ودخان فيه ... كريح الجعر فوق عطين جلد  
فأقسم غير مستثنٍ يميناً ... أبا بخرٍ لتتخمن ردي

فلو كنت المهذب من تميمٍ ... لخفت ملامتي ورجوت حمدي  
نكحت علي نكهة أخدري ... شتيم أعصل الأنياب ورد  
فما يدنو إلي فمه ذبابٌ ... ولو طليت مشافره بقند  
فإن أهديت لي من فيك حتفا ... فإنني كالذي أهديت مهدي

قال محمد بن سهل: وما زال ابن عبدل يزيد في قصيدته هذه الدالية حتى  
مات وهي طويلة جداً. قال: واشتهرت حتى إن كان المكاربي ليسوق بغله أو حماره  
فيقول: عد

أمات الله حسان بن سعد

فإذا سمع ذلك أبوه قال: بل أمات الله ابني محمداً، فهو عرضني لهذا البلاء في  
ثلاثين درهماً.

وقالوا : دعا أبو المهاجر ، الحكم بن عبدل ليشرب عنده وله جارية تغني فغنت  
فقال ابن عبدل:

يا أبا المهاجر قد أردت كرامتي ... فأهنتني وضررتني لو تعلم  
عند التي لو مس جلدي جلدها ... يوماً بقيت مخلداً لا أهرم  
أو كنت في أحمى جهنم بقعةً ... فرأيتها بردت علي جهنم

قال: فجعل أبو المهاجر يضحك ويقول له: ويحك! والله لو كان إليها سبيلٌ  
لوهبتها لك، ولكن لها مني ولدٌ.

وكان عمر بن يزيد الأسدي مبخلاً، ووجدته أبوه مع أمةٍ له فكان يعير بذلك وجاءه الحكم بن عبدل الأسدي ومعه جماعة من قومه يسألونه حاجةً، فدخلوا إليه وهو يأكل تمرًا فلم يدعهم إليه، وذكروا له حاجتهم فلم يقضها؛ فقال فيه ابن عبدل:

جئنا وبين يديه التمر في طبقٍ ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا

علا على جسمه ثوبان من دنسٍ ... لئومٍ وجبنٍ ولولا أيره سادا

وقالوا : كان الحكم بن عبدل صديقاً لبشر بن مروان، فرأى منه جفاءً لشغلٍ عرض له، فغاب عنه شهراً، ثم التقيا فقال: يا ابن عبدل، مالك تركتنا وقد كنت لنا زواراً؟ فقال ابن عبدل:

كنت أثنى عليك خيراً فلما ... أضمر القلب من نوالك ياسا

كنت ذا منصبٍ قنيت حياي ... لم أقل غير أن هجرتك باسا

لم أطق ما أردت بي يابن مروا ... ن ستلقى إذا أردت أناسا

يقبلون الخسيس منك ويثنو ... ن ثناءً مدخمساً دخماسا

فقال له: لا نسومك الخسيس ولا نريد منك ثناءً مدخمساً، ووصله وحمله

وكساه.

وقالوا : تزوج ابن عبدل امرأةً من همدان فقالوا له: على كم تزوجت؟ فقال:

تزوجت همدانيةً ذات بهجةٍ ... على نمطٍ عاديةٍ ووسائد

لعمري لقد غاليت بالمهر إنه ... كذاك يغالي بالنساء المواجد

قال: فلما دخل بها كرهها فقال:

أعادلتني من لومٍ دعاني ... أقلا اللوم إن لم تعذراني

فإني قد دلت على عجز ... مبرقعة مخصبة البنان  
تغضن جلدها واخضر إلا ... إذا ما ضرجت بالزعفران  
فلما أن دخلت وحادثتني ... أظلتني بيوم أرونان  
تحدثني عن الأزمان حتى ... سمعت نداء حرباً بالأذان  
فقلت قد نكحت اثنين شتى ... فلما صاحباني طلقاني  
وأربعة نكحتهم فماتوا ... فليت عريف حي قد نعاني  
وقالت ما تلادك قلت مالي ... حمار ظالع ومزادتان  
وبوري وأربعة زيوف ... وثوبا مفلس متخرقان  
وقطعة جلة لا تمر فيها ... ودناً عومة متقابلان  
فقلت قد رضيت فسم ألفاً ... ليسمع ما تقول الشاهدان  
وما لك عندنا ألف عتيد ... ولا تسع تعد ولا ثمان  
ولا سبع ولا ست ولكن ... لكم عندي الطويل من الهوان

وقد كان الحكم بن عبد الأسد منقطعاً إلى بشر بن مروان، وكان يأنس به  
ويحبه ويستطيبه، وأخرجه معه إلى البصرة لما وليها، فلما مات بشر جزع عليه  
الحكم وقال يرثيه:

أصبحت جم بلابل الصدر ... متعجباً لتصرف الدهر  
مازلت أطلب في البلاد فتى ... ليكون لي ذخراً من الذخر  
ويكون يسعدني وأسعده ... في كل نائبة من الأمر

حتى إذا ظفرت يداي به ... جاء القضاء بحينه يجري  
إنني لفي هم يباكرني ... منه وهم طارق يسري  
فلأصبرن وما رأيت دوى ... اللهم غير عزيمة الصبر  
والله ما استعظمت فرقته ... حتى أحاط بفضله خبري

وخرج يزيد بن عمر بن هبيرة يوماً يسير بالكوفة فانتهى إلى مسجد بني  
غاضرة، وأقيمت الصلاة، فنزل يصلي، واجتمع الناس لمكانه في الطريق وأشرف  
النساء من السطوح، فلما قضى صلاته قال: لمن هذا المسجد؟ قالوا لبني غاضرة،  
فتمثل قول الشاعر:

ما إن تركن من الغواضر معصراً ... إلا فصمن بساقها خلخالاً  
فقالته امرأة من المشرفات:

ولقد عطفن على فزارة عطفةً ... كرامنيح وجن ثم مجالاً  
فقال يزيد: من هذه؟ فقالوا: بنت الحكم بن عبدل؛ فقال: هل تلد الحية إلا  
حية! وقام خجلاً.

وعن ابن عياش قال: رأيت ابن عبدل الأسدي وقد دخل على ابن هبيرة، فقال  
له: أنشدني شيئاً فقال: أنشدك مقولةً أيها الأمير؟ قال: هات؛ فأنشده هذه الأبيات  
وهي قديمةٌ وقد تمثل بها ابن الأشعث حين خرج، ويروى أنها لأعشى همدان -  
نجم ولا نعطي وتعطي جيوشهم ... وقد ملئوا من مالنا ذا الأكارع  
وقد كلفونا عدةً وروائعاً ... فقد وأبي رعناكم بالروائع  
ونحن جلبنا الخيل من ألف فرسخ ... إليكم بمجمر من الموت ناقع

قال: فغضب ابن هبيرة من تعريضه به، وقال به: والله لولا أنني قد أمتك واستنشدتك لضربت عنقك.

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً على الطعام، فدخل عليه الحكم بن عبدل الشاعر وهو يأكل بطيخاً، فسلم فلم يرد عليه السلام ولم يدعه إلى الطعام؛ فقال ابن عبدل يهجو.

في عمر يزيد خلنا دنس ... بخلٌ وجبنٌ ولولا أيره سادا  
جنناه يأكل بطيخاً على طبقٍ ... فما دعانا أبو حفص ولا كادا  
وكان لعبد الملك بن بشر بن مروان كاتبٌ يقال له محمد بن عمير وكان كلما  
مدحه ابن عبدل بشيءٍ وأمر له بجائزةٍ دافعه بها وعارضه فيها، فدخل يوماً إلى عبد  
الملك وكاتبه هذا يساره، فوقف وأنشأ يقول:

ليتَ الأميرَ أطاعني فشفيتُهُ ... من كلِّ مَنْ يُكفي القصيدَ ويَلْحَنُ  
مكُورٌ يَحْتَوِ الكلامَ كأنَّما ... باتتَ مناخِرُهُ بدُهْنٍ تُعْرَنُ  
وبي ليهم سِجناً فكنتُ أميرهم ... رَمناً فأضربُ مَنْ أَشَاءُ وَأَسْجُنُ  
قل لابنِ أَكِلَةَ العِفاصِ محمَّدٍ ... إن كنتَ من حبِّ التقرُّبِ تجبُّ  
أنتَ امرؤٌ في أرضِ أمِّك فلفلٌ ... جَمٌّ وفلفلنا هناك الدنن  
فبحقِّ أمِّك وهي منك حقيقةٌ ... بالبرِّ واللطفِ الذي لا يُخزَنُ  
لا تُدنِ فاكَ من الأميرِ ونحهُ ... حتَّى يُداويَ ما بأنفِكَ أهرنُ  
إن كانَ للظَّربانِ جُحرٌ مننٌ ... فلجُحرِ أنفِكَ يا محمَّدُ أنتنُ

فَسَلِ الْأَمِيرَ غَيْرُ مَوْفَقٍ ... وَبَنُو أَبِيهِ لِلْفَصَاحَةِ مَعْدِنُ  
وَسَلِ ابْنَ دَكْوَانَ تُحِدُهُ عَالِمًا ... بِسَلِيْقَةِ الْعُرْبِ الَّتِي لَا تَحْرُنُ  
إِذْ أَنْتَ تَجْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ عَفْصَةً ... فَتَجِيْدُ مَا عَمِلْتَ يَدَاكَ وَتَحْسِنُ  
أَشْبَهْتَ أُمَّكَ غَيْرَ بَابٍ وَاحِدٍ ... أَنْ قَدْ خُتِنْتَ وَأَنْهَا لَا تُخْتَنُ  
فَلَنْ أَصِبتَ دِرَاهِمًا فَدَفَنْتَهَا ... وَفُتِنْتَ فِيهَا، وَابْنُ آدَمَ يُفْتَنُ  
فَبِمَا أَرَاكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مُدْرِهِمْ ... إِذْ ذَاكَ تَقْصِفُ فِي الْقِيَانِ وَتَرْفُنُ  
إِذْ رَأْسُ مَالِكٍ لُعْبَةً بَصْرِيَّةً ... بَيَضَاءُ مُعْرَبَةً عَلَيْهَا السُّوسَنُ  
أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضِ مَشَقَّةٍ ... وَلِحَصْدِ أَنْفِكَ بِالْمَنَاحِلِ أَهْوَنُ  
أَنْتَ امْرُؤٌ فِي أَرْضِ أُمَّكَ فُلْفُلٌ ... جَمٌّ وَفُلْفُلَانَا هُنَاكَ الدَّنِينُ  
فَبِحَقِّ أُمَّكَ وَهِيَ مِنْكَ حَقِيْقَةٌ ... بِالْبِرِّ وَاللِّطْفِ الَّذِي لَا يُخْرَنُ  
لَا تُدْنِ فَكَ مِنْ الْأَمِيرِ وَنَحْنُ ... حَتَّى يُدَاوِي مَا بَأْنَفِكَ أَهْرَنُ  
إِنْ كَانَ لِلطَّرْبَانِ جُحْرٌ مُنْتِنٌ ... فَلَجُحْرُ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدٌ أَنْتَنُ

وعن محمد بن سهل راوية الكميت قال: خطب ابن عبدل امرأةً من همدان

يقال لها: أم رياح فلم تتزوجه، فقال: أما والله لأفضحك ولأعيرنك فقال:

فلا خير في الفتيان بعد ابن عبدل ... ولا في الزواني بعد أم رياح

فأيري بحمد الله ماضٍ مجربٌ ... وأم رياحٍ عرضةٌ لنكاحي

وولد للحكم بن عبدل ابنٌ فسماه بشرًا، ودخل على بشر بن مروان فأنشده:

سميت بشراً ببشر الندى ... فلا تفضحني بتصدقها  
إذا ما قرّيشُ البطا ... ح عند تجمع آفاقها  
تسامت قرومهم للندى ... تباري الرياح بأوراقها  
فمالك أنفع أموالها ... وخلقك أكرم أخلاقها  
فأمرله بألفي درهم، وقال: استعن بهذه على أمرك.

وقالوا : اقترض ابن عبدل مالا من التجار وحلف لهم بالطلاق ثلاثاً أن  
يقضيهما المال عند طلوع الهلال، فلما بقي من الشهر يومان قال:

قد بات همي قرناً أكابده ... كأنما مضجعي على حجر  
من رهبة أن يرى هلال غدٍ ... فإن رأوه فحق لي حذري  
من فقد بيضاء عادةً كملت ... كأنها صورة من الصور  
أصبحت من أهلي الغداة ومن ... مالي على مثل ليلة الصدر  
فبلغ خبره عبد الملك بن بشر فأعطاهم مالهم عليه وأضعفه له؛ فقال فيه:

لما أتاه الذي أصبت به ... وأنشدوه إياه في شعري  
جاد بضعفي ما حل من غرمي ... عفواً فزالت حرارة الصدر  
لأشكرن الذي مننت به ... ما دمت حياً وطال لي عمري

وقال محمد بن سهل: اجتمع الشعراء إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل، فقالوا  
للحجاج: إنما شعر ابن عبدل كله هجاءٌ وشعرٌ سخيّف؛ فقال له: قد سمعت قولهم  
فاستمع مني؛ قال هات فأنشدته قوله:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرصي

وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي ... فأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي  
حتى انتهى إلى قوله:

ولست بذني وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي  
فقال له الحجاج: أحسنت! وفضله في الجائزة عليهم بألفي درهم.  
وقال ابن عبدل أيضاً:

نَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَدَخَانُ فِيهِ ... كَرِيحِ الْجَعْرِ فَوْقَ عَطِينِ حِدِّ  
رَكِبْتُ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ أَتَانِي ... كَرِيمٍ يَطْلُبُ الْمَعْرُوفَ عِنْدِي  
فَقُلْتُ لَهُ وَلَمْ أُعَجِّلْ عَلَيْهِ، ... وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيطِي وَحَمْدِي  
فَأَعْرَضَ مُكْمَحًا عَنِّي كَأَنِّي ... أَكَلْتُ صَخْرَةً فِي رَأْسِ صَمْدِ  
أَقْرَبُ كُلِّ أَصِرَةٍ لِيَدْنُو ... فَمَا يَزْدَادُ مِنِّي غَيْرَ بُعْدِ  
فَأَقْسِمُ غَيْرَ مُسْتَثْنٍ يَمِينًا ... أَبَا بَخْرٍ لَتَتَّخِمَنَّ رَدِّي  
فَلَوْ كُنْتُ الْمَهْدَبَ مِنْ تَمِيمٍ ... لَخَفْتُ مَلَامَتِي وَرَجَوْتُ حَمْدِي  
نَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَوَجِدْتُ رِيحًا ... كَرِيحِ الْكَلْبِ مَاتَ قَرِيبَ عَهْدِ  
وَقَدْ أَلْدَعْتَنِي ثَعْبَانِ نَتْنٍ ... سِيْبَلِغُ إِنْ سَلِمْنَا أَهْلَ نَجْدِ  
وَأَدْنَى خَطْمِهِ فَوِدِدْتُ أَنِّي ... قَرَنْتُ دُونَوَّهُ مِنِّي بِيُعْدِ  
كَمَا افْتَدَتِ الْمَعَاذَةُ مِنْ جَوَاهُ ... بِخِلْعَتِهَا وَلَمْ تَرْجِعْ بِرَنْدِ  
وَفَارَقَهَا جَوَاهُ فَاسْتَرَا حَتُّ ... وَكَانَتْ عِنْدَهُ كَأَسِيرٍ قَدْ  
وَقَدْ أَدْنَيْتُ فَاهُ إِلَيَّ حَتَّى ... قَتَلْتُ بِذَلِكَ نَفْسِي غَيْرَ عَمْدِ

وما يدنو إلى فيه دُبابٌ ... ولو طُليت مَشافِرُهُ بِقَنَدٍ  
يَدُقُن حلاوةً وَيَخْفَنُ موتاً ... زعافاً إنْ هَمَمَنَ له يورِدِ  
فلما فاح فُوهُ عليّ فَوْحاً ... بمثل غَثِيثَةِ الدَّيْرِ المَغْدِ  
فقلت له: تنحّ بِفِيكَ عَنِّي ... فما هذا بِرِيحِ قُتَارِ رَنَدِ  
وما هذا بِرِيحِ طِلاٍّ وَلَكِنْ ... يَفِوْحُ خِرَاكَ مِنْهُ غَيْرِ سَرَدِ  
فحدّثني فَإِنَّ الصِّدْقَ أدنى ... لبابِ الحَقِّ مِنْ كَذِبِ وَجَدِ  
أباتَ يَجولُ فِي عَفَجِ طحورٍ ... فأعلم أَمَّ أَتَاكَ بِهِ مُغَدِّي  
نكّهتَ عليّ نكهةً أَخَذَرِي ... شتيمٍ أَصَلِ الأَنْيابِ وَرَدِ  
فإنْ أَهديتَ لي مِنْ فِيكَ حَتْفِي ... فَإِنِّي كَالذِي أَهديتَ أَهدِي  
لكم شُرُداً يَسِرْنَ مَغْنِيّاتٍ ... تَكُونُ فَنونُها مِنْ كَلِّ فِنْدِ  
أما تَخْرِي حَزِيّتَ لها إِذا ما ... رَوّاهَا النَّاسُ مِنْ شَيْبِ وَمُرْدِ  
لأَرْجُو إنْ نَجوتَ ولم يُصَبْنِي ... جَوِّي إِنِّي إِذَنْ لَسَعِيدِ جَدِّ  
وقلتُ له: متى اسْتَطَرَفْتَ هذا ... فقال أَصابني مِنْ جَوْفِ مَهْدِي  
فقلت له: أما دَاوَيْتَ هذا ... فَتَعذِرْ فِيهِ أَمَلاً بِجَهْدِ  
فقال: أَمَّا عَلِمْتَ لَهُ رِقَاءً ... فَتَسُدِّيهِ لَنَا فِيما سَتُسُدِّي  
فقلت له: ولا أَلَوهُ عِيَا ... لَهُ فِيما أَسْرُلهُ وَأُبْدِي  
عَلَيْكَ بِقِيئَةٍ وَيَجْعَرُ كَلْبٍ ... وَمِثْلِي ذَاكَ مِنْ نونِ كَنَعْدِ  
وَحِلْيَتِ وَكُرَّاتِ وَثُومٍ ... وَعُودِي حَرَمَلِ وَدِمَاغِ فَهْدِ

وَحَنْجَرَةَ ابْنِ أَوْىِ وَابْنِ عِرْسٍ ... وَوَزْنَ شَعِيرَةٍ مِنْ بَرِّرٍ فَقَدِ  
 وَكَفَّ دُرُحْرُحٍ وَلِسَانِ صَقْرٍ ... وَمَثْقَالَيْنِ مِنْ صَوَّانٍ رَقْدِ  
 يُدَقُّ وَيُعَجِّنُ الْمَخُولَ مِنْهُ ... بِبَوْلِ آحِنٍ وَبِجَعْرِ قِرْدِ  
 وَتَدْفِنُهُ زَمَانًا فِي شَعِيرٍ ... وَتَرْقِبُهُ فَلَا يَبْدُو لِبَرْدِ  
 فَدَخَّنَ فَكَ مَا عَنَّقْتَ مِنْهُ ... وَلَا يَعْجَنُ بِأُظْفَارِ وَنَدِّ  
 فَإِنْ حَضَرَ الشِّتَاءُ وَأَنْتَ حَيٌّ، ... أَرَاكَ اللَّهُ غَيِّكَ أَمْرَ رَشْدِ  
 فَدَحْرَجَهَا بِنَادِقٍ وَازْدَرَدَهَا ... مَتَى رُمْتَ التَّكْلُمَ أَيَّ زَرْدِ  
 فَتَقْذِفْ بِالْمِصَلِّ عَلَى مِصَلٍّ ... بِبَلْعُومٍ وَشِدْقٍ مُسْمَعِدِّ  
 وَوَيْلَكَ مَا لِبَطْنِكَ مَدَّ قَعْدَنَا ... كَأَنَّ دَوِيَّهُ إِزْرَامَ رَعْدِ  
 فَإِنَّ لِحِكَّةَ النَّاسُورِ عِنْدِي ... دَوَاءً إِنْ صَبِرْتَ لَهُ سِيْجِدِي  
 يُمِيتُ الدُّودَ عَنْكَ وَتَشْتَهِيهِ ... إِنْ أَنْتَ سَنَنْتَهُ سَنَ الْمُقَدِّي  
 بِهِ، وَطَلَيْتَهُ بِأُصُولِ دِفْلَى ... وَشَيْءٍ مِنْ جَنَى لَصْفٍ وَرَنْدِ  
 أَظُنِّي مَيِّتًا مِنْ نَتْنٍ فِيهِ ... أَهَانَ اللَّهُ مَنْ نَاجَاهُ بَعْدِي

وقيل لعلويه كلب المطبخ: أي شيء معنى قولهم: هذا نبيد يمنع جانبه؟ قال:

يريدون أن الدبان لا يدنونه، وكان الرقاشي حاضراً فأنشد قول ابن عبدل:

عَشَّشَ الْعَنْكَبُوتَ فِي قَعْرِ دَنِي	إِنَّ نَا مِنْ رَزِيَّتِي لِعَظِيمِ
لَيْتَنِي قَدْ غَمَرْتُ دَنِي حَتَّى	أُبْصِرَ الْعَنْكَبُوتَ فِيهِ يَعْوَمُ
عَرَقًا لَا يُغِيثُهُ الدَّهْرُ إِلَّا	زَبَدٌ فَوْقَ رَأْسِهِ مَرْكُومِ
مَخْرَجًا كَفَّهُ يَنَادِي ذِبَابًا	أَنْ أَغْتَنِي فَإِنِّي مَغْمُومِ

قال: دَعْنِي فَلَنْ أُطِيقَ دُنُوًّا      من شَرَابٍ يَشْمُهُ المَزْكُومُ  
قال الجاحظ في كتاب الحيوان بعد أن ذكرتلك القصة: والدَّبَّانُ يَضْرَبُ به  
المثلُّ في القَدَرِ وفي استطابة النَّتْنِ، فَإِذَا عَجَزَ الدُّبَابُ عن شَمِّ شَيْءٍ فهو الذي لا يكون  
أَنْتَنُ مِنْهُ.

ولذلك حينَ رَمَى ابنُ عبدِ مُحَمَّدِ بنِ حَسَّانِ بنِ سَعْدٍ بالبخر، قال:  
وما يدنو إلى فيه ذبابٌ      ولو طَلَيْتَ مَشَافِرُهُ بِقَنْدٍ  
يَرَيْنَ حَلَاوَةً وَيَخْفَنَ مَوْتاً      وَشَرِيكاً إِنْ هَمَّ مَنْ لَهُ بَوْرِدٌ  
وقال ابنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الفأرةِ والسَّنُورِ:  
يا أبا طلحةَ الجوادِ أَعْمِثْنِي      بسجالي من سيبك المَقْسُومِ  
أحي نفسي فدتك نفسي فإني      مفلسٌ قد علمتَ ذاكَ عديمِ  
أو تطوعَ لنا بسلافٍ دقيقِ      أجرُهُ إِنْ فَعَلْتَ ذاكَ عَظِيمِ  
قد علمتُم فلا تعامس عني      ما قَضَى اللهُ فِي طعامِ اليَتِيمِ  
[ أراد: لا تعامسوا، فاكتفى بالضمّة من الواو، وأنشد:

فلو أنَّ الأَطْبَاءَ كانَ حَولِي      وكانَ مَعَ الأَطْبِباءِ الأَساءَةُ [   
ليس لي غيرُ جِرةٍ وأصيصِ      وكتابٍ مَنَمَنِمٍ كالوشومِ  
وكساءٍ أبيعُه برغيفِ      قد رَقَعنا خرووقه بأديمِ  
وَإِكَافٍ أَعارِنِيهِ نَشِيطُ      هو لِحافٌ لِكُلِّ ضيفِ كَرِيمِ  
ونبيدٍ مِمَّا يَبِيعُ صُهِيبُ      يذُرُ الشايخَ رَمَحَهُ ما يَقُومُ

ربّ حلا فقد ذكرتُ أصيصي  
كل بيت عليه نصفُ رغيْف  
فر منه موليّا فارُّ بيّتي  
قلتُ: هذا صومُ النصارى فحلّوا  
ضحكَ الفأرُ ثم قلن جميعاً  
قلتُ: إن البراء قد قام في ال  
حملوا زادهم على خنفسات  
وإذا ضفدعٌ عليه إكاف  
خطموا أنفه بقطعة حبل  
تصبّوا منجنيقهم حول بيّتي  
وإذا في الغباء سمُّ بُريص  
قلتُ: بيتُ الجرينِ مجمعُ صدق  
قلن: لولا سنورتاهُ احتفرنّا  
إن تلاقِ سنورتاهُ فضاءً  
عشش العنكبوت في قعر دنى  
ليتنى قد غمرت تدنى حتى  
غرقاً لا يغيثه الدهرُ إلا

ولحافي حتى يغورَ النجوم  
ذاك قسمٌ عليهم معلومٌ  
ولقد كان ساكناً ما يريمٌ  
لا تليحُوا شيوحكُم في السّمومِ  
أهو الحقُّ كلَّ يومٍ تصوّمِ  
ناسٍ بإذنٍ وأنتَ فينا ذميمٌ  
وقرادٍ مخيسٍ مزُومِ  
علموه بعد النفار الرسيمِ  
يا لقومي لأنفه المخطومِ  
يا لقومي لبيّتي المهودمِ  
قائمٌ فوق بيتنا بقدمِ  
كان قدماً لجمعكم معلوم  
مسكناً تحت تمره المركوم  
تذرانا وجمعنا كالهزيمِ  
إن ذا من رزيتي لعظيم  
أبصر العنكبوت فيه يعومِ  
زيدٌ فوق رأسه مركوم

وكان الحكم بن عبدل أعرج، وكان بعد هجائه لمحمد بن حسان بن سعد بالقصيدة الدالية الشهيرة السابقة لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ عليها حاجته إلا قضاها كيف كانت، فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أمير الكوفة، وكان أعرج، وكان صاحبُ شُرطته أعرج فقال ابن عبدل:

أَلِقِ الْعَصَا وَدَعِ التَّعَارِجَ وَالتَّمِيسُ      عملاً فهذي دَوْلَةُ العُرْجَانِ  
فَأَمِيرِنَا وَأَمِيرُ شُرْطَتِنَا مَعَاً      يا قومنا لكليهما رِجْلَانِ  
فَإِذَا يَكُونُ أَمِيرِنَا وَوَزِيرُهُ      وَأَنَا فَإِنَّ الرَّابِعَ الشَّيْطَانُ  
وَقَالَ آخِرُ وَوَصَفَ ضَعْفَهُ وَكَبَّرَ سَنَّهُ:

آتِي النديّ فلا يُقَرَّبُ مجلسي      وأقوُدُ للشرفِ الرفيعِ حمارياً  
وقال ابن عبدل في بشر بن مروان بن الحكم:

ولو شاء بشر كان من دون بابه      ولماطم سود أو صقالبة حمر  
ولكن بشراً أسهل الباب للتي      يكون لبشر عندها الحمد والأجر  
بعيد مراد العين ما رد طرفه      حذار الغواشي باب دار ولا ستر  
وقال ابن عبدل:

نِعَمَ جَارُ الخَنْزِيرَةِ المُرْضِعِ العَرَّ      ثَى إِذَا مَا غَدَا، أَبُوكَلْثُومِ  
طَاوِيأاً قَدْ أَصَابَ عِنْدَ صَدِيقِ      مِنْ غِذَاءِ مُلَبَّبِ مَأْدُومِ  
ثُمَّ أَنَحَى بِجَعْرِهِ حَاجِبَ الشَّمِّ      سِ فَالْقَى كَالعِلْفِ المَهْدُومِ

وقال ابن عبدل الأسي

بيناهم بالظهر قد جلسوا  
فإذا ابن بشر في مواكبه  
فكأننا نظروا إلى قمر  
يوماً بحيث ينزع الذبح  
تهوى به خطارة سرح  
إو حيث علق قوسه قزح

## الشاعر الجاهلي خفيف الظل :

### علباء بن أرقم

كان علباء بن أرقم اليشكري الشاعر الجاهلي معاصراً للملك النعمان بن المنذر، وكان النعمان قد أحمى كبشاً، أي أذاع في الناس أن هذا الكبش يرتع ما شاء أينما شاء في حمى النعمان، وحدث مرة أن أُلقت الأقدار هذا الكبش في طريق علباء فذبحه وأكله، وعرف النعمان ذلك فغضب وتوعد علباء، فلما بلغ ذلك علباء اغتم كثيراً ثم اهتدت نفسه إلى حيلة طريفة، وهي مدح الملك النعمان بقصيدة فيها اعتذار خفيف الدم، فصنع قصيدته هذه وبدأها بوصف لحياته الزوجية المضطربة الحافلة بالشجار، فلم يكن علباء من السعداء في حياتهم الزوجية وكعادة الشعراء الجاهليين، يقص علينا في قصيدة أخرى كيف أن زوجته "تماضر" هجرت منزله، وسارت غضبي إلى بيت أبيها في منطقة تسمى "فلجا" بينما يقيم هو وأهله في منطقة "اللوى"، وزعمت أنه لا خير فيه، وأن أبناءها منه سوف يعوضونها بعد وفاته حياة خيراً من حياتها معه :

حلت تماضر غربة فاحتلتِ      فلجاً وأهلك باللوى فالحلتِ

وكأنما في العين حب قرنفل      أو سنبلأ كحلت بها فانهلتي

إن عينه لتهطل بالدموع حتى لكأن فيها حب قرنفل أو سنبلأ، وقد أفاض الشراح في تأويل نصب حب قرنفل، وقالوا إن السنبل نبات طيب الرائحة غير أن السياق يقتضي أن يكون حب القرنفل والسنبل مما يؤدي العين لأن الشاعر يريد في

هذا البيت أن يصف لنا غزارة دمه المذروف على فراق زوجته ، فلا بد أن يكون النبات الذي اختاره مما يساعد على ذرف الدموع كما هو الحال مع بعض التوابل .

زعمت تماضر أنني إما أُمْتُ يسدد أبيضها الأصاغر حَلَّتِي

إن زوجته تزعم أن أبناءها سيسدون الفراغ الذي سيتركه إذا مات ، وهو

يأتي بكلمة "أَبْيُوهَا" تصغيراً لأبنائها كنوع من الاستهزاء والسخرية.

ثم يعاتب زوجته عتاباً رقيقاً ويذكرها -بعد أن يدعو لها بالثراء والغنى- بأنه كان وفيّاً لقومه إذا أيسروا إذا أعسر ، وبأنه كان يقي قومه العضلات الشداد مهما تعظم

وبأنه فارس محارب :

تربت يداك، وهل رأيت لقومه مثلي على يسري وحين تعلتي

يوماً إذا ما النائبات طرفدنا أكفي بمعضلة وإن هي جلت

ومناخ نازلة كفيت وفارس نهلت قناتي من مطاة وعَلَّت

ثم يذكرها بأنه كان يسرع إلى التضحية بالنوق العشار إذا لاحظ أن الضر

أو الجوع قد مس الفقراء ، وهو يذكرها بهذه الصفات في لغة غليظة يلتزمها الشعراء

الجاهليون حين يتحدثون عن النوق والنحر :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت نصب القدور فَمَلَّت

دَرَّتْ بأرزاق العيال مغالِقٌ بيدي من قمع العشار الجلة

[ ملت : أي شوت الخبز أو اللحم في الملة أي الرماد الحار ، العيال :

الفقراء ، المغالِق : قدام الميسر ، القمع : جمع قمعة وهي أعلى سنام الإبل ، الناقة

العشراء : أي التي مر على حملها عشرة أشهر ، الجلة : العظام الكبار . ]

ثم يتحدث الشاعر عن تدخله للصلح بين عشيرته ، وكيف أنه بهذا التدخل قد كفى  
عشيرته الدواهي الكبار والصغار :

ولقد رأيتُ تأتيَ العشيرةَ بينها      وكفيت جانبها اللُتيا والتي  
وصفحت عن ذي جهلها ورفدته      نصحي ولم تُصب العشيرة زلتي  
وكفيتُ مولاي الأحمَّ جريرتي      وحبستُ سائمتي على ذي الخلّة

إنه يتجاوز عن حقه إذا أخطأ أحد في حقه ، بل إنه يبذل له النصح حتى لا  
يتكرر منه الخطأ ، ثم إنه يحاول تجنب قومه آثار خطئه ، فإذا أخطأ لم يصب  
عشيرته من خطئه ما يؤذيهم . ويتحمل وحده نتائج جريرته إذا بدرت منه جريرة .  
ويعود فيذكر في آخر شطرة أنه قد نذر إبله وأنعامه ليطعمها البأس الفقير ومن به  
حاجة إليها. إن علباء في هذه القصيدة يتفاخر بأجاده، وكأنه يستدر عطف زوجته  
الناشزكي تعود إليه، ولكننا نحس من قصيدته الثانية شيئاً آخر، إنه يعتذر إلى  
النعمان بن المنذر عن خطئه في حق كبشه المحمي، وهو يقدم لهذا الاعتذار بصورة  
لبيت مضطرب : زوجة مشاكسة، لا تنام ولا تريد لزوجها أن ينام، زوجة غضوب لا  
تريح ولا تستريح، تعذب زوجها بتوزع عواطفها بين الرضا حيناً والغضب حيناً آخر،  
فيوم ترضى يرى منها زوجها وجهاً حسناً وسيماً قسيماً كوجه ظبية ذات جيد  
مبسوط تمده في مرح ورضا لتنال به بغيتها من الشجر، وهي يوم تغضب تدعي أمام  
جيرانها أنه ظالم وأن أباه ظالم وتريد أن تقسم معه ماله لتضمه إلى مالها، فإذا أوى  
ذلك عليها ظلاً يتعاركان طوال الليل، يستمع الجيران إليهما وهما يتبادلان الشد  
والجذب والأيمان المغلظة:

ألا تكلمنا عِرْسِي تصد بوجهها  
أبونا، ولم أظلم بشيء عملته  
فيوماً تُوافينا بوجه مُقَسَّم  
ويوماً تريد مالنا مع مالها  
نبيتُ كأننا في خُصومِ عِزامةٍ  
وتسمعُ جاراتي التَّالِيَّ والقَسَمُ  
وتزعم في جاراتها أَنَّ من ظَلَمَ:  
سوى ما تَرَيْنَ في القَدالِ من القَدَمِ  
كأن طيبة تعطو إلى وارف السَلَمِ  
فإن لم نُنْهأ لم تُنْهأ ولم تَنَمِ  
وتسمعُ جاراتي التَّالِيَّ والقَسَمُ

ويسخط علباء على زوجه، ويبلغ به السخط مدى بعيداً، فيحذرهما تحذيراً واضحاً ويهددها تهديداً سافراً بترك المنزل، ويقول لها فيغلظ في القول ويؤكد له لن لم تنتهي أيتها الزوج المشاعبة لأجزينك جزاء تندمي عليه، ولاخذن إبلي وأرتحل عنك وستخسرين بذلك رجلاً شجاعاً كريماً في عسره ويسره:

فقلتُ لها إن لا تَنَاهِيْ فإِنِّي      أخو النُكْرِ حَتَّى تَقْرعي السنَّ من نَدَمِ  
لَتَجْتَنِبَنَّكَ العيسُ خُنْساً عَكُومُها      ودو مِرَّةٍ في العسر واليسر والعَدَمِ

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته رأى ابتسامة هادئة تتسلل إلى وجه الملك النعمان، ولعل الملك طرب لهذا الوصف الساخر لحياة الشاعر الزوجية ومشاعباته اليومية مع زوجته، أف يكون من اللائق بالملك إذاً أن يعذب هذا الإنسان بسبب كبش اصطاده؟ أفلا يكفيه ما هو فيه من عذاب يومي في منزله؟ إن الشاعر قد تسلل في رشاقة وظرف إلى نفسية الملك السمع الذي يفد إليه الشعراء من كل فج عميق.. إن الشاعر يوجه خطاباً إلى جموع الحاضرين في مجلس الملك ويسألهم مستنكراً: هل رأيتم قبل ذلك ملكاً كريماً جليلاً من قبيلة "معد" العظيمة يعذب

واحداً من مواطنيه الفقراء؟ وفيم؟ في كبش يسير عابثاً لا حارس معه، ولا قطع  
ينتمي إليه؟

وَأَيُّ مَلِيكَ مِنْ مَعَدٍّ - عَلِمْتُمْ  
- يُعَدِّبُ عَبْدًا - نِي جَلالِ وَنِي كَرْمٍ  
أمن أجل كبش لم يكن عند قريةٍ ولا عند أذوادٍ رثاعٍ ولا غَتمٍّ؟

إن هذا الكبش استفز علباء، فهو يسير مختالاً متباهياً مغروراً كأنه لا يرى  
أحداً ينافسه، فهو يقطع الأرض طولاً وعرضاً ينال من النبات ما يستهويه، وإن  
علباء ليأخذه العجب من هذا الكبش المغرور المتخايل، فيقسم أنه تحير في أمره  
أ يكون هذا الكبش مخموراً فهو يمشي هذه المشية الاستفزازية؟ إن علباء يشعر  
بالجوع الشديد، ويبدو أن مظهر الكبش الممتلئ الوحيد الذي لا يقربه أحد من الناس  
خشية غضب الملك، وأن مظهره أغرى به علباء فتاقت نفسه إلى ذبح هذا الكبش  
الشارد ويطعم لحمه من معه من الرفاق وكلهم جائعون:

يُمَشِّي كَأَنَّ لَاحِيَّ بِالْجَزَعِ غَيْرُهُ وَيَعْلُو جَرَاثِيمَ الْمَخَارِمِ وَالْأَكْمِ  
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ أَمِنْ حَمْرِي أَتِي الطَّلَالَ أَمْ اتَّحَمٌ  
بصرت به يوماً وقد كاد صحبتي من الجوع ألا يبلغوا الرَّجْمَ مِ الْوَحْمِ

ثم إن علباء بن أرقم يصف لنا في ثلاثة أبيات غلاظ شداد كيف كان ذبح  
ذلك الكبش وما الأدوات التي استخدمها في إنضاجه، فيذكر لنا الحطب الكثير  
والسكين الحادة القاطعة، والخشبتين اللتين تستقدح بهما النار، والقدر التي أنضج  
فيها لحم الكبش ورائحتها التي تجتلب الكلاب:

بذِي حَطَبٍ جَزَلٍ وَسَهْلٍ لِفَائِدٍ      وَمِبراةٍ غَرَّاءٍ يُقَالُ لَهَا هُدْمٌ  
وَرُنْدِي عَفَّارٍ فِي السِّلَاحِ بِقَادِحٍ      إِذَا شَنَّتْ أَوْرِي قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ السَّامُ  
وَقَدْرِيهَا هِي بِالْكَلابِ قَتَّارُهَا      إِذَا خَفَ أَيَسَارُ الْمَسامِيحِ وَاللَّحْمِ

ثم إنه يشير إلى أن أصحابه حذروه من صنيعه ذلك، على الرغم مما بهم من جوع وتشاء موا من فعلته، وذكروه بأحمر عاد، وهو رجل يقال له قدار بن سالف وإرم هي المدينة التي كان يسكنها ثمود وأحياناً يطلق على ثمود "عاد الأخيرة" تفريقاً بينها وبين عاد الأولى قوم هود- وكان لقوم ثمود (أو عاد الأخيرة) ناقة قد حرم الله عليهم الاعتداء عليها وحذرهم نبي الله صالح عليه السلام من المساس بها فعقرها قدار بن سالف فأهلك الله قوم ثمود بسببها، والرواة يقولون أحمر عاد ويقصدون أحمر ثمود وهو قدار هذا، ويعود الفضل إلى المبرد في توضيح هذا اللبس والإشارة إلى إطلاق اسم عاد الثانية على ثمود في قصة الناقة المشهورة.

وقد ورد هذا البيت الذي أشار فيه علماء إلى ذلك :

وَقَالَ صِحَابِي إِنَّكَ الْيَوْمَ كَائِنٌ      عَلَيْنَا كَمَا عَفَى قَدَارٌ عَلَى إِرْمٍ

وفي رواية الأصمعي ورد هذا البيت قبل البيت الثالث في الأبيات الثلاثة السابقة ولكننا نميل إلى ترتيب الأبيات الأربعة على هذا النحو الذي أوردناه مراعاة للسياق، ولا نشك في أن ما حدث هو محض خطأ من الرواة والنساخ.

ونحن نستنتج من هذا البيت أن علماء كان قبل أن يعقر الكبش عالماً بأنه محمي للملك النعمان، وعلى ذلك يكون مرتكباً لجنايته تلك مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب القانون. ولعله كان من الشهرة في المرح والدعابة بحيث يثق في

سماحة الملك مع أمثاله من الشعراء، ولعله كان يعرف طبيعة الملك ولا يشك في أن فيها متسعاً للعفو، وقد قدمنا أنه اختار أنموذجاً من خلافاته الزوجية الشائقة ليكون مفتتحاً لقصيدته الاعتذارية أمام الملك، فهو إذاً صاحب شخصية مميزة، لم يعتذر للملك اعتذاراً مهيناً كما فعل النابغة الذبياني ولم يبدأ قصيدته بوصف الأطلال كما كان يفعل معاصروه من الجاهليين.

لكنه يقول إنه كان جائعاً، وكان رفاقه جوعاً، ومر بهم هذا الكبش يتهادى ويتخايل فاستفزه فأنحروه وأشبعوا جوعهم، وحين عرفوا أن الكبش محمي للملك، ثار فيهم علباء زاجراً، وهل يغضب الملك من أجل كبش أكله جائع من رعاياه؟ إن التخويف بالملك مبالغة فظة مجافية للخلق الكريم لأن فيها تعريضاً لا يليق بالملوك، فليس الملك بخيلاً مغلول اليد، وليس المجني عليه عمماً ولا خالاً للملك: ألم نقل إن علباء رجل يحب الهزل؟!

أخوَّف بالنعمان حتى كأنها      قتلتُ له خالاً كريماً أو ابن عمٍّ!!  
وإن يدَ النعمان ليست بكَرَّةٍ      ولكن سماء تمطر الوبيل والديم

ولعل الملك أغرق في الضحك حين بلغ الشاعر هذا المبلغ من قصيدته، ولعل الملك تذكر حينئذ أخواله وأبناء عمومته، وتذكر كرم يده وسخاءها، وبره بالشعراء وحنوه عليهم.

ولعل الشاعر حين بلغ هذا المبلغ من قصيدته، ورأى ابتسام الملك أو ضحكه يريد أن يتمادى في غيه، فهو يعود إلى وصف حالته النفسية حين رأى هذا الكبش السمين الشارد، وهو يعاني من الجوع، ورفاقه يعانون الجوع، ويمعن الكبش في

استفزاز هؤلاء القوم الجوعى، وكأنه يهزأ بهم ويسخر منهم فيثير التراب برجليه ليعلو وجوههم الناحلة المغبرة، وليتسرب إلى حلوقهم الجافة الساخطة في حين يرتع ذلك الكبش ويأكل ويشرب مما يحلوه من نبت وماء إن الشاعر هنا يقول إنه كان مسلوب الإرادة إزاء هذا الاستفزاز، حتى لكأنه في حالة دفاع شرعي عن النفس كما يقول أصحاب القانون أيضاً:

لبستُ ثياب المقتِ إن أب سالماً ولم أفنّه، أو أن أُجرَّ إلى الرِّجَمِ

وفي هذا البيت الأخير صورة نفسية رائعة لهذا الكبش وللشاعر، فالكبش ساهٍ لاهٍ عابتٌ يثير التراب برجليه على الشاعر وكأنه يتحداه، والشاعر جائعٌ ظامئٌ مغبرٌ تكاد روحه تبلغ الحلقوم، أو تكاد تخرج فعلاً منه من ألم السفر وألم الجوع وألم العبت الذي يعبته هذا الكبش:

يثير على الترابَ فحْصاً برجله وقد بلغ الدَّلْقُ الشواربَ أو نَجَمَ

أما الدلق فهو الحد، وأما الشوارب فمجاري النَّفْسِ، ثم ينهي الشاعر قصيدته بوصف إلية الكبش الضخمة، وكيف ذبحه ويصف لنا عملية الذبح وخروج الدم من الحلق وتقطيعه للكبش وطهيه، ثم يقول إنه فاز هو ورفاقه باللحم وفازت الذئاب والطيور الجارحة بما تبقى من عظامه ورأسه:

له إلية كأنها شطُّ ناقيةٍ أبحُّ إذا ما مُسَّ أبهره نجَمَ

وقطعته باللوم حتى أطاعني وألقى على ظهر الحقيبة أو وَجَمَ

ورحنا على العبِّ المعلق شلوه وأكرعه، والرأس للذئب والرخمُ

مواريث أبائي وكانت تريكةً لآل فُدار صاحب الفطري في الحُطَمِ

صفحات مجمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

ونحن لا نجد معنى لهذا البيت الأخير الذي يصف فيه هذه الفعلة بأنها من فعال آبائه التي يفخر بحفاظه عليها، إذ إن المجال ليس بمجال فخر في مواجهة الملك، بل مجال اعتذار وأسف.

وأغلب الظن أن في القصيدة أبياتاً ضائعة، أو لعل هذا البيت الأخير دخيل عليها، أو لعل في ترتيب أبيات القصيدة اضطراباً على النحو الذي أشرنا إليه عند قوله :

وقال صِحَابِي إِنَّكَ الْيَوْمَ كَائِنٌ عَلَيْنَا كَمَا عَفَى قُدَارٌ عَلَى إِرْمٍ

على أن هذا الرأي لا يغض من قيمة القصيدة بوصفها تحفة فنية شائقة ولوحة شعرية خفيفة الظل، متجددة العطاء.

## هذا الشاعر الرائع الجميل.. ابن الحمارة !!

نحن اليوم ضيوف على مجلس شاعر عجيب الشأن، فهو شاعر مجيد فى شعره غاية الإجادة، وهو موسيقي ملحن يهتم بفنه كل الاهتمام، وهو رجل دولة بلغ مرتبة الوزارة، ومع ذلك كله تغافل عنه المؤرخون واضطربوا فى شأنه فلم يذكروا لنا عنه إلا نتفاً يسيرة، إلا أنهم اتفقوا على شئ واحد هو هذا الاسم الغريب العجيب الذى يذكرونه به (ابن الحمارة)!!

ترجم له ابن سعيد المغربى فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) [٢/١٢٠ - ط دار المعارف - الترجمة رقم ٤٣٦] فذكر أنه كان تلميذاً لفيلسوف الأندلس الشهير ابن باجه وأن اسمه (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى، ويروى له رثاء فى أستاذه ابن باجة الفيلسوف لما مات، فقد وقف ابن الحمارة على قبره راثياً بقوله:

يا صاحب القبر القريب ودونه هم تبيت له الكواكب تسهر  
قم- إن أطقت- وهات عن صور الردى خيراً، فقد عانيت كيف تصور  
واخبر عن الملكوت كيف رأيتيه إن الغريب عن الغرايب بخبر

وفى تحقيقه لكتاب ابن سعيد المغربى نقل الدكتور شوقى ضيف فى ترجمة ابن الحمارة أن الضبى ترجم له فى البغية (ص ٥١٧) وقال عنه: شاعر مجيد خبيث الهجاء ذكره الفتح فى كتاب "المطمح" واستدرك الدكتور ضيف على هذا النقل أن كتاب المطمح المطبوع لم ترد فيه ترجمة لابن الحمارة.

وقد ترجم لابن الحمارة كذلك المقرئ في "نفع الطيب" نقلاً عن ابن سعيد إلا أنه دعاه أبا الحسين علياً بن الحمارة- كما يقول د. ضيف، وذكره ابن دحية في "المطرب" ودعاه الوزير أبا عامر بن الحمارة، وذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ودعاه أبا بكر بن الحمارة (٢/٢٤٢).

وخلاصة هذه النقول والتراجم أننا أمام شاعر لا خلاف على إجادته الشعر ولكن الخلاف في اسمه وكنيته فبعضهم أخفى اسمه واكتفى بكنيته وجعلها (أبا عامر) وبعضهم صرح باسم له هو (على) وجعل كنيته (أبا الحسين)، وأحدهم لقبه بالوزير، ولكن أحداً لم يذكر لنا سنة مولده ولا سنة وفاته. إلا أن ابن سعيد في المغرب نسبه إلى غرناطة فقال (أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطي) وذكر أنه كان يعمد للشعراء (بفتح الشين المشددة وسكون العين: بمعنى الروضة ذات الشجر الكثير) فيقطع العود من الشجرة بيده فيسويه ويصنع منه عوداً للغناء، وكان ينظم الشعر، ويلحنه، ويغنيه، فنحن إذا أقمنا شاعراً وملحناً موسيقياً هاويحسب فنه ويخلص له، هذه أول ناحية نلمسها في شخصيته، والناحية الثانية أنه إنسان ودود يحب الناس ويحبونه، ونستنتج ذلك من نوعين من شعره: أولهما شعره في رثاء أستاذه الفيلسوف ابن باجة وقد ذكرناه سابقاً، وثانيهما شعره في رثاء زوجته حين ماتت فرثاها قائلاً:

ولما أن حللت الترب قلنا      لقد ضلت مواقعها النجوم  
ألا يا زهرة ذبلت سريعاً      أضن المزن؟ أم ركد النسيم؟

فالرثاء دليل الوفاء، والوفاء مقرون بالتواد والتحاب بين الناس، والنوع الثانى من شعره الذى نستنتج منه أنه كان ودوداً محبباً محبوباً بين الناس شعره فى الإخوانيات وما يرتبط بها من مناسبات، فمن ذلك ما روى من أن امرأة مشهورة بجمالها أهدت إليه مسكاً فقال:

أنا فتيت المسك يعبق عرفه  
فأشعرنى ريباً حبيب أعيره  
فوالله لولا أن تقول لى المنى  
لحدثت نفسى عند ذلك أننى  
وأهدت إليه أخرى تفاحة فقال:

بعثت إلى كخدها تفاحة  
فصرفت وجهى عنهما ولقد أرى  
كى لا يغار على الحبيب حبيه  
وكطعم ريقتها رحيقاً سلسلاً  
مترشفاً عذب الجنى ومقبلاً  
فيقول بات بغيرنا متعللاً

**شعره ورقته:**

وإذا كان شعراء الأندلس معروفين بركة أشعارهم، وخفة أرواحهم وتأثرهم ببيتهم الخضراء الوارفة الضلال، الطيبة الثمار، فإن ابن الحمارة بلغ من هذه الرقة ذروتها، وتسئم من تلك الخفة أعلى مراميهما، وشعره الغزلى أكبر شاهد على أن حسه الفنى كان دقيقاً رقيقاً، وقرأ إن شئت قوله يصف حاله وغربته ويخاطب ليله الطويل:

ألا يا ليل هل لك من صباح  
ألا يا ليل طللت على حتى  
فهل باتت فطيمة فيك تشكو  
أردد زفرة المظني كأني  
يقابني الأسى جنباً لجنب  
وهل لأسير نجمك من سراج  
كأنك قد خلقت بلا صباح  
كما أشكو اغترابي وانتزاحي  
جريح أن من ألم الجراح  
كأني فوق أطراف الرماح

ثم يتجه بالخطاب إلى حبيبته التي أسماها فطيمة وهو هنا يكتفيها بأمر عمرو  
فيشكو لها لهفته إلى رؤيتها، ورغبته في لقائها، وكيف تجشم المشاق ليزورها فجاء  
بلاداً ينكره أهلها وينكرهم، فأقام بينهم غريباً، عاشقاً، محزوناً، محروماً، فهو يعاتب  
حبيبته لأنها لم تسمح بلقائه ولو أرادت لفعلت فهو يقول:

دعاني الحب نحوك أم عمرو  
ولو أسطيع من طرب وشوق  
أحبتنا رويدكم علينا  
هو القدر المتاح جرى علينا  
غريب حل داركم فأضحت  
تناكرت الوجوه بها عليه  
فطرت إليك خفاق الجناح  
ركبت إليك أجنحة الرياح  
فقد جمح الهوى كل الجماح  
ومن يسطيع للقدر المتاح  
له يهماء موحشة النواحي  
وكانت ذات عرف وانشراح

ويشتد ابن الحمارة في عتاب حبيبته أم عمرو، فيقول إن بيدها أن تلقاه  
فبيثها شوقه ولهفته وحببه ولو اعج غرامه، وهي إن فعلت ذلك فما زادت على أن

صدقت ما كانت تزعمه من محبتها إياه، وعشقها له، وها هو ذا يشك في كلامها فهو مريض بحبه وهي صحيحة معافاة لا تعاني سقم الحب، وهول العشق:

ولو شئتُ لما حسن انفرادى      بأشواقى ولا وجب اطراحى  
وقلتُ إنكم تجدون وجدى      وهيهات المراض من الصحاح  
أعاتبكم لأنكم بخالتم      وأنتم قادرون على السماح  
ويبدو أن ابن الحمارة قد عبر البحر من الأندلس إلى المغرب وأقام فيه زمناً  
ففى شعره قصيدة يذكر فيها (المسيلة) وهى من بلاد المغرب الأوسط، وهو فى هذه  
القصيدة يخاطب محبوبه يكنيها بأم طلحة تقيم فى مدينة المسيلة على ما يبدو،  
فيقول:

لم يدر طيف خيالك المتأوب      أنى على جمر الأسى أنقلب  
وافى يعارضه رقيبى لم يدع      نومى يجىء ولا سهادى ذهب  
وانظر إلى روعة التصوير فى قوله يصف يقظة قوم أم طلحة وحراسها الذين  
يسهرون على حراستها من هذا العاشق المتربص، فيخيل إليه أن نيل النجوم أقرب  
إليه وأسهل عليه من أن يظفر بساعة ينام فيها هؤلاء الرقباء الحراس المزعجون:

يا أم طلحة والديار قريبة      والنجم من غفلات قومك أقرب  
هل تذكرين إذ الأعداى نزع      والملتقى كئيب ودارك مشغب  
يا سرحة حرمت على وإنها      لألذ من ماء الحياة وأعذب  
ما بعد ظلك لى مقيل فاعلمى      كلا ولا لى بعد مائك مشرب

صفحات مجمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

يا صاحبي وإليك شكوى صاحب  
عجزت محالته وضاق المذهب  
امرر على هدف "المسيلة" إنه  
هدف إلى مع العشى محيب  
ويبدو أنه يئس من لقاء حبيبته أم طلحة وغادر المسيلة عائداً إلى غرناطة  
ففى إحدى قصائده يظهر تأثره وتحسره على أيام أم طلحة فيقول:

ألا ليت شعرى هل تعود كعهدنا  
ليال طويناهن طى المراحل  
إذا ذكرتها النفس كادت من الأسى  
تسرب فى أولى الدموع الهوامل  
وإنى وتركى أم طلحة بعدما  
تسلسل منى حبها فى المفاصل  
لظمان قفر أبصر الماء حسرة  
وقد زيد عن أطرافه بالمناصل  
ولولا رجائى عطفة الدهر لم أبل  
متى نزلت بالنفس إحدى النوازل  
عن النوم سل عيناً به طال عهدا  
وكان قليلاً فى ليال قلائل  
أبيت بمستأنى الخيال ودونه  
طروق سهاد واعتياد بلايل  
إذا ظن وكراً مقلتى طائر الكرى  
رأى هدبها فارتاع خوف الحبايل  
والأبيات الثلاثة الأخيرة بلغت الغاية فى الإجابة وحسن تصوير الأرق، وما  
يجلبه الأرق والسهاد من ألم ومرض وحزن واكتئاب، لا ندرى أكان أكثره من الغربة  
أم من فراق الأحباب؟.

## أبو العلاء المعري ضد تعليم المرأة

اسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، وكنيته أبو العلاء، ولقبه المعري نسبة إلى قرية " معرة النعمان " التي ولد بها من بلاد الشام وتنوخ قبيلة عربية أصيلة نسبها بيعرب بن قحطان ويشهد المؤرخون لها بأنها " كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا"، وبنو الساطع الذين منهم بيوت المعرة، أعز بطون تنوخ، وبيت أبي العلاء من بني سليمان ابن داود بن المطهر سليل الساطع، ويقول فيهم " ابن العديم " مؤرخ حلب " وأكثرها قضاة المعرة وفضلائها وعلماؤها وأدبائها من بني سليمان ". وقد ولد أبو العلاء في بيت علم وقضاء وجاه، وكانت ولادته سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣هـ) الموافقة لسنة ٩٧٣ ميلادية.

وكان نحيف الجسم، وأصيب بالجدرى صغيرا فعوى في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. وطلب العلم وبرع فيه حتى اشتهر. ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ وظل فيها قرابة سنة ونصف سنة ثم عاد إلى معرة النعمان، ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار، وسمى نفسه " رهين المحبسين " للزومه منزله وذهاب بصره، ويذهب بعض الكتاب إلى أنه رهين ثلاثة محابيس لا محبسين اثنين، ويستدلون لذلك بقوله في اللزوميات:

أرانى في الثلاثة من سجونى      فلا تسأل عن الخير النبىث

لفقدى ناظرى، ولزوم بيتى وكون النفس في الجسد الخبيث (١)  
وقد ظل أبو العلاء معتكفا في منزله هذا من بعد عودته من بغداد في نحو  
سنة ٤٠٠ هـ حتى وفاته سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، وثمان وخمسين وألف  
بعد ميلاد المسيح.

ويذكر المؤرخون لأبي العلاء أنه قضى هذه الحقبة في التدريس لطلابه الذين  
كانوا يقصدونه من كل صوب وصوب، وفي تأليف الكتب، ومؤلفاته كثيرة ومشهورة  
ومن أشهرها رسالة الغفران، وديوان سقط الزند، وديوان اللزوميات، وغيرها كثير.  
وكان يتصف إلى جانب علمه وثقافته بصفات خلقية رفيعة أطنب المؤرخون في  
تفصيلها، كما كان يرى رأى بعض الحكماء (= الفلاسفة) في عدم إيلاء الحيوان  
ومن هنا جاء تحريمه أكل اللحم على نفسه ما يقرب من خمس وأربعين سنة.

#### أبو العلاء وتعليم المرأة:

يتلخص رأى أبي العلاء في المرأة في أنها شر، ولكنه شر لا بد منه فهو على  
مستوى النظرية قدم لنا في اللزوميات الآراء المتعددة التي تؤكد هذا، وعلى مستوى  
التطبيق عاش بلا زوجة ولا ولد. غير أن آراءه المتعددة لا تخلو من تناقض:

فهو ينصح الإنسان بأن يزوج ابنته ولا يزوج ابنه:

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

وذلك لأن الزواج عصمة للمرأة من الفتنة، وفي ذلك وقاية للمجتمع من  
الفساد الذي يترتب على خروج النساء، وعدم إحصانهن. أما الرجال فهم قادرون

على الصبر على عدم الزواج، والرهبان أصدق مثال على ذلك لولا أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

ويعجبني عيش الذين تهربوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وهو يدعو إلى التفرد واعتزال النسل لأن الإنجاب يعرض الذرية لآلام الحياة وفي عدم الإنجاب وقاية من ذلك:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقوله:

الحكم لله، فالبت مفرداً أبداً ولا تكن بصنوف الناس مختلطاً

ولست أدري سوى أنى أرى رجلاً يرب نسلًا لرب الدهر قد غلطا

وهو يرى أن طبيعة المرأة فاسدة، ويؤكد أن النساء ناقصات عقل، ويستدل على ذلك بقاعدة نحوية وهي جمع غير العاقل بالألف والتاء وهما علامة جمع التأنيث فنحن نقول في جمع مجلة وكراسة وسماء: مجلات وكراسات وسماوات، كما نقول في جمع بنت: بنات، فهو يستنتج من ذلك أن انعدام العقل في الجمادات هو الذي جعلنا نختار لها من بين صيغ الجموع التي تعرفها لغة العرب، صيغة جمع المؤنث، وهو استنتاج عجيب ولا دليل عليه. يظهر في قوله:

إننا، معاشر هذا الحلق، في سفه حتى كأننا على الأخلاق نختلف

إن الرجال إذا لم يحمها رشد مثل النساء عراها الخلف والخلف (٢)

صفحات مجمولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

ألا ترى جمع مالا عقل يسنده      جمع المؤنث فيه التاء والألف  
وقد صرح أكثر من مرة بأنه يوافق على وأد البنات، أولعله يقصد أن الموت  
خير للفتاة من الحياة. فمن ذلك قوله:

إن الأوانس أن تزور قبورها      خير لها من أن يقال عرائس  
وهو ينصح الزوجات اللاتي لهن بنات، أن يتشددن في تربية بناتهن ولا  
يتركهن يخرجن لشهود حفلات الزواج وهن متزينات بالحجول (الخلاخيل)  
والأقراط:

نصحتك يا أم البنات فحاذرى      وساوس ولج الأسود، فناس  
ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى      لتشهد عرساً، واشغلنها بعرناس (٣)

فعلى الأم أن تشغل ابنتها بمغزل تتلهى به، وألا تستمع لمن يوسوس لها  
بخرجها.

وأبو العلاء إذ يرفض المرأة، ويرى الموت خيراً لها من الحياة، فإنما يرفضها في جميع  
حالاتها بدرجات مختلفة، فهي تعبت بألباب الرجال ومن صفاتها ألا تنصف أحداً  
حتى من عشاقها:

نعوذ بالله من غوان      يكن باللب معصفات  
ومن صفات النساء قدما      أن لسن في الود منصفات

ولذلك نجده ينصح الرجل ألا يأمن للمرأة وألا يسايرها في غوايتها لأن تبعات ذلك كثيرة.

لا تتبعن الغايات مماشيا      إن الغواني جمة تبعاتها

وهو يرى أن أمر المرأة كله شر، فليست فتنة النساء في دخول الحمامات (وهي أماكن عامة كانت تنتشر في ذلك الوقت للنظافة) فحسب، بل إن مجرد تفریط الرجل وسماحه للمرأة بالخروج متعطرة متزينة هو شركبير حتى لو كان خروجها إلى المسجد، فمن ذا الذي يأمن الإمام الذي ستصلي خلفه؟ يقول أبو العلاء مرتجزاً:

شر على المرأة من حمامها	إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب في أكمامها	يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها	تأتم والخيبة في ائتمامها
بأحدل ما عف عن كمامها	أعازها الخالق من إمامها

وفي اللزوميات قصيدة مطولة خاصة بالنساء عرض فيها أبو العلاء آراءه بالتفصيل والوضوح مطلعها:

ترنم في نهارك مستعيناً      بذكر الله في المترنمات

فهو يصف النساء في هذه القصيدة بأنهن يتظلمن وهن ظالمات، فلا ينبغي على الرجل أن يرد عليهن السلام إذا أشرن إليه بالسلام لأنهن طرق إلى الغي والفتنة، لا يكتفين بالوسامة الطبيعية، بل يلتمسن الوسامة بالخضاب (= الحناء)

ولا ترجع بإيماء سلاماً  
أولات الظلم جئن بشر ظلم  
فوارس فتنه أعلام غي  
وسام ما اقتنعن بحسن أصل  
على غيد أشرن مسلمات  
وقد واجهننا متظلمات  
لقينك بالأساور معلمات  
فجئنك بالخضاب موسمات

وماذا سيستفيد الإنسان من صحة النساء ؟ إذا ولدن له أولاداً فقد يعاني من عقوقهم وأذاهم وما يجرونه إليه من مصائب، وإذا ولدن له إناثاً قسيمات الوجوه جميلات، فما أشد بؤسه بهذه الوجوه الحسان التي تريد حلياً وتريد زواجاً وهن لا يدفعن عن الرجل في الحرب ولا يرددن عنه غارة، ومع ذلك فإنه لا يسلم من لومهن وتأنيبهن:

صحبك فاستفدت بهن ولدا  
ومن رزق البنين فغير ناء  
فمن تكل يهاب ومن عقوق  
وان تعط الإناث فأى بؤس  
يردن بعولة ويردن حلياً  
ولسن بدافعات يوم ضرب  
أصابك من أذاتك بالسلمات  
بذلك عن نوائب مسقمات  
وأرزاء يجئن مصممات  
تبين في وجوه مقسمات  
ويلقين الخطوب ملومات  
ولا في غارة متغشمات

فأفضل شيء للنساء دفنهن، لأنهن إذا كبرن وتزوجن ثم فقدن أزواجهن فسيصرن عبئاً على آبائهن مرة أخرى، كما أنهن قد يلدن في المستقبل من يعادى جده أو أخواله، وقد يجلبن العار إذا مسهن ظلم أو هضمت حقوقهن:

ودفن والحوادث فاجعات  
لإحداهن إحدى المرمات  
وقد يفقدن أزواجاً كراماً  
فيا للنسوة المتأيمات  
يلدن أعادياً ويكن عاراً  
إذا أمسين في المتهزمات

وهو ينهى عن تعليم المرأة صراحة، ويدعو إلى تعليمهن حرفة الغزل لأن في ذلك أماناً لهن:

ولا تحمد حسانك إن توافت  
بأيد للسطور مقومات  
فحمل مغازل النسوان أولى  
بهن من اليراع<sup>(٤)</sup> مقلّمات

لأن النساء إذا تعلمن فسيستعملن ما تعلمنه في الشر:

سهام إن عرفن كتاب لسن  
ويتركن الرشيد بغير لب  
وان جئن المنجم سائلات  
ليأخذن التلاوة من عجوز  
رجعن بما يسوء مسمات  
أتين لهديه متعلمات  
فلسن عن الضلال بمنجمات<sup>(٥)</sup>  
من اللائى فغرن مهتمات  
ويركعن الضحى متأثّات  
إذا قلن المراد مترجمات

وإذا كان لابد من تعليمهن فيجب أن يختار الرجل لتعليم بناته معلماً عجوزاً أكل عليه الدهر وشرب، يعلمهن آيات القرآن، بحيث يكون قد بلغ من الكبر مبلغاً يجعله مرتعش اليدين، أشيب الشعر:

ولا يُدنينَ من رجل عجوز  
يلقنهن آيا محكمات  
سوى من كان مرتعشاً يداه  
ولته من المتلغمات

ويتحدث أبو العلاء عن ظواهر اجتماعية بعينها، كالشعوذة، فينصح كل أب أن يحتاط في معاملة بناته، وأن يسعى في تربيتهن سعى المشفق عليهن، ومن أساليب التربية التي يدعو إليها الآباء، ألا يتركوا بناتهن يخرجن لزيارة اترابهن ممن تزوجن وأصبحن عرائس فيخرجن متخذات زينتهن لباساً كريش الطاووس وعطوراً يجعلنها في وجوهن.

وإن طاوعن أمرك فانه غيداً  
يزرن عرائساً متممات  
أخذن كريش طاووس لباساً  
ومسكا بالضحى متلغمات (٦)

ومن أساليب تربية الرجل لبناته ألا يتركهن يذهبن إلى عجائز النساء المشعوذات اللائي يزعمن أنهن قادرات بسحرهن على جلب الأزواج وتليين قلوب العشاق وعطفها حتى يعودوا إلى معشوقاتهم:

وأبعدهن عن ربات مكر  
سواحر يفقدين معزمات  
يقلن: نهيج الغياب حتى  
يجيئوا بالركاب مزمات  
ونعطف هاجر الخلان كيما  
يزول عن السجايا المسئمات  
فلا يدخلن دارك باختيار  
فقد ألفيتهن مذمات

كما أن أبا العلاء يذم زواج المصلحة، فلا ينبغي أن تتزوج فتاة مراهقة من شيخ عجوز، لاسيما إذا كان فقيراً، لأن الفقر مع تقدم السن بلاء ميين، وإذا أراد ذلك العجوز أن يتزوج فعليه أن يبحث عن امرأة عانس تقلبت مر الدهر وانتظرت الزواج عاماً بعد عام فهي شمطاء واهنة تتسلى بغزل الصوف مع مرور السنين:

(٧) ولا يتأهلنُ رجل مقل بمعصرة من المتنعمات  
فان الفقر عيب إن أضيفت إليه السن جاء بمعظمت  
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجذبت الوجوه محمات  
من اللائي إذا لم يجد عام تفوقن الحوادث معدمات  
من الشمط اغتزلن بكل عودٍ وأفنين السنين مجرمات

ثم إن الرجل إذا تزوج فلا ينبغي له أن يعدد زوجاته بل لابد أن يكتفي بواحدة.

وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات

وهو ينهى عن ظلم الزوجة لأن النساء كالزجاج، ولعله اقتبس هذا المعنى من القول المأثور (رفقاً بالقوارير) أو القول الآخر (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج، إذا جنّت تقومه كسرته):

(٨) وإن أرغمت صاحبة بضر فأجدرُ أن ترع بمعرمات  
زجاج إن رفقت به، وإلا رأيت ضروبه متقصمات

ونجده في غير هذه القصيدة يلح في تعليم المرأة، لأن المرأة لا ينبغي أن تطلب من العلم إلا ما يحفظ عليها دينها، ويكفي في ذلك أن تحفظ سورة الإخلاص وسورة الفاتحة، وتستغني بها في صلاتها عن السور الطوال:

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة  
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلاص تجزى عن يونس وبراءة.

وقد بلغ من تشدد أبي العلاء على المرأة بعد أن نهاها عن الصلاة في جماعة أن نهى عن حج المرأة، وهو بهذا يخالف قواعد الدين ولا نستطيع أن نلتمس له في ذلك عذراً.

وخلاصة ما سبق:

أن أبا العلاء ساء ظنه بالمرأة إلى درجة من النادر أن بلغها شاعر غيره.

- أنه يرى تعليم المرأة في ظروف مشددة من رجل عجوز.
- ولا ينبغي أن تزيد في تعليمها عما تتطلبه أمور العبادة.
- وألا تخرج المرأة متزينة متبرجة متعطرة.
- وأن يبتعد الرجال بأنفسهم وبأسرهم عن الفتنة.
- وأن الزواج شر، فإن كان ولا بد فواحدة تكفي.
- وعلى الرجال أن يسارعوا بتزويج بناتهم، وألا يسارعوا في تزويج أولادهم.

- أن أبا العلاء قد تناقض مع نفسه في كثير من آرائه فيما يخص المرأة.  
أن بعض آراء أبي العلاء في المرأة تخالف أصول الدين حيث تطرف في  
مراعاة الحذر حتى دعا إلى وأد البنات واستحسن ذلك، كما حذر من شهود المرأة  
الجماعات.

## من عجائب التصحيف

### حكاية عيسى !!!

التصحيف هو تغيير بعض أحرف الكلمة فيتغير معناها ، ويكون التصحيف بتغيير ضبط الحروف ( حركاتها ) أو تغيير ترتيبها بتقديم أو تأخير ، وقد روى صاحب كتاب " تصحيح التصحيف وتحريف التحريف " في كتابه كثيرا من نوادير التصحيف في تراثنا ، فمن التصحيف اللطيف ما روي عن الشاعر المتفنن صفي الدين الحلي ، الذي كان ولوعا باستعمال التجنيس والتورية وسائر فنون البديع في شعره ، والأبيات التالية تتحد فيها كلمة الروي ( عيسى ) ولكنها تأتي بمعان مختلفة إذا ما كتبت خالية من التنقيط ، وهذه المعاني المختلفة أساسها تلك الاحتمالات المتعددة التي يمكن أن تنطق بها تلك الكلمة حال خلوها من النقط :

سألتُ الحِبَّ: ما اسمُك، وهو ظي من العرب الكرام، فقال: عيسى،

(الاسم العلم أي : أن اسمه " عيسى " )

فقلتُ له: انتسب من أي قومٍ تكون من الأنام؟ فقال: عيسى،

(عَبَسِيّ من بني عَبَس)

فقلتُ: وما صَنِيعُك في البوادي لتحصيل الحِطام؟ فقال: عيسى،

(يعني عَشَّاباً )

فقلتُ: ومَنْ أنيسك في البوادي إذا جنّ الظلام؟ فقال: عيسى،

(عَنَسِي : يعني ناقته)

فقلتُ: وعمّ تسألُ كلَّ غادٍ يمر على الدوامِ؟ فقال: عيسى،

(عن شيء)

فقلتُ: وأي عيش في البوادي يلدّ لذي الغرام؟ فقال: عيسى،

(عيشي)

فقلتُ: ولم عصيتُ تُصيحَ حبّ دعاك الى المقام؟ فقال: عيسى،

(عشني)

فقلتُ: لقد سلبتَ القلبَ مئّي بلحظك والقوام، فقال: عيسى،

(عبتت بي)

فقلتُ: عساك تسمعُ لي بوصلٍ أيا بدر التمام، فقال: عيسى،

(عنيّني : من العناء أي أرهقتني)

فقلتُ: وما الذي يدعوكَ حتى تجافى بالكلام، فقال: عيسى،

(عَبَّئْتَنِي أَي ظَلَمْتَنِي مِنَ الْعَبْنِ يَقْصِدُ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَدَ مَجَافَاةَ الْكَلَامِ)

فقلتُ له: صدقتَ وكلّ شيءٍ تقولُ على النّظام، فقال: عيسى،

(عُنيت بي)

فقلتُ: بمن أعيش وأنت سُؤلي وتبخل بالمرام، فقال: عيسى،

(عِشْ لِي)

وقال الشاعر عز الدين أبو الحسن الموصلي الحنبلي أبياتا يحاكي بها أبيات

صفي الدين الحلي السابقة، وحاول أن يزيد عليها فقال :

أتى عيسى وناداني: تُرى مَنْ تُحب من الأنام؟ فقلت: عيسى،

(عَنَيْتَنِي)

فقال: نعم رأيتُ إليك قلبي يحنُّ من الهيام فقلت: عيسى،

(عَيْنُ بَثِي)

فقال: وما حلالي قط شيءٌ سوى هذا المقام فقلت: عيسى،

(غَيْبَتَنِي)

فقال: ونيتي واللهِ وصلٌ به يُمحي الملامُ فقلت: عيسى،

(عَيْنُ نَيْتِي)

فقال: عليك لي عتبٌ إذا ما تطارحنا الغرامَ فقلت: عيسى،

(عَتَبَتَنِي)

فقال: بشرطٍ أنْ أشدو بلحنٍ على شربِ المدامِ فقلت: عيسى،

(غنَّ شيءٌ)

فقال: أما شدوتُ بطيبٍ نعم يحنُّ له الحمامُ؟ فقلت: عيسى،

(غَنِّيَنِي)

فقال: وقد أتتْ ليلي: سلامٌ، وأسرع في القيام فقلت: عيسى،

(عَنَّ بَيْنِي)

فقال: وما حداك على فراقي بلارِدَّ السلام؟ فقلت: عيسى،

(عَيَّبَتَنِي)

فقال: انظروقد حنقتُ عليه وتعبس في الكلام فقلت: عيسى،

(عَبَّسِي)

فقال: حملتَ عِبَّ العَشِقِ منها وصبرك في انهزام، قلت: عيسى،  
(عِبُّ سِيءٌ)

فقال: وما ترى فعل اللواتي رَعَيْنَ لك الزمام؟ فقلت: عيسى،  
(غَيَّبَنِي)

قال صاحب الكتاب: فقال لي بعض الناس: ألا إنك جعلت عوض فقلت: فقال،  
وعوض فقال: فقلت. قال: فغيرتها الى الصورة التي قالها، وقلت:

أتى عيسى فقلت له: الى من تميل من الأنام؟ فقال: عيسى،  
عَنَيْتَنِي

فقلت: نعم رأيت إليك قلبي يحن من الهيام، فقال عيسى،  
عَيْنُ بَنِي

فقلت: وما حلالي قط شيء سوى هذا المقام فقال: عيسى،  
غَيَّبَتَنِي

فقلت: ونبيي يا بدر وصل به يشفى الأوامُ فقال: عيسى،  
عَيْنُ نَبِي

فقلت: عليك لي عتب إذا ما تطارحنا الغرام فقال: عيسى،  
عَتَّبَتَنِي

فقلت: بشرط أن أشدو بلحن على شرب المدام فقال: عيسى،  
غَنَّ شَيْءٌ

فقلت: أما شدوتَ بطيب نغم يحن له الحمام فقال: عيسى،

غنيّتي

فقلت: اجلس فقد جاءتك ليلي تحيي بالسلام فقال: عيسى،

عنّ بيّني

فقلت: وما حداك على فراق وإسراع القيام فقال: عيسى،

عيّبيّني

فقلت: أقم، فقامتُ وهي غضبيّ تعبس في الكلام، فقال: عيسى،

عبيّنيّ

فقلت له: حملت العباء منها وصيري في انهزام، فقال: عيسى،

عباء سيّئ

فقلت: فما فعل اللواتي رعينَ لك الزمام، فقال: عيسى،

غبيّبيّني

قال صاحب التصحيف : وقد بقيتُ على ذلك زيادة ليس فيها زيادة، ولا يقدح البديع فيها زنده، فأحببتُ نظمها، وأردتُ رقمها، فقلت، وإن كان في ذلك قَلق، ولم ينشق دجاء عن فلق، فإن المُتقدّمين الفاضلين أخذوا ما رقّ وراق، وفلذا ما راع ونزل وما هو في درج الفصاحة براقٍ ولا برّاق، فليعذرُ صاحبُ الدوق مَنْ شَبَّ عمره في هذا المقام عن الطوق، وذلك:

غدا عيسى يفرُّ من الغواني فقلتُ له: علام؟ فقال: عيسى،

عبثنَ بيّ

فقلتُ: اغفرْ وعُدْ، فالعودُ أولى، فما في ذاك ذام فقال: عيسى،

عَبْنُ ثُنَيِّ

فقلت: احمِلْ أذى مَنْ بتَّ تهوى ولا تخشَ الملام فقال: عيسى،

عَيْبُ بُنِي

فقلتُ: وما يَسوءُكُ بتُّ سرَّ تنالُ منه المرامُ فقال: عيسى،

عَبْتُ بَتِّي

فقلت: فراسِتي حكمتُ بهذا عليك فما ألامُ فقال: عيسى،

عَيْبُ بُنِي

فقلت: رأيتك مع فتاةٍ حكَّتْ بَدْرَ التمامِ فقال: عيسى،

غَيْبَتْنِي

فقلت: فما لقدك وهو عُصْنٌ يميلُ من المدامِ فقال: عيسى،

عَنْ نَنْتِي

فقلت: فما ترى من بعد هذا فقلْ جاء المنامُ فقال: عيسى،

غَشَّيْنِي

فقلت: وما ركابك إن قطعنا الفلا تحت الظلامِ فقال: عيسى،

عَيْسِي

فقلت: أريد أن ألقاءك خُلُواً تفرَّ من الآثامِ فقال: عيسى،

غَثَّيْتَنِي

قال مؤلف كتاب التصحيف المذكور: وقلت أنا في تصحيف يحيى:

ومليح قلتُ: ما الاسمُ حبيبي؟ قال: يحيى،

(العَلَمُ المشهور)

قلتُ: خاطبني بتصحيحٍ تَعِشْ لي قال: يحيى،

(يحييا من الحياة)

قلتُ: حيّاك إلهي، قال لي: بل أنت يحيى،

( تُحيّا من التحيّة )

قلتُ: في قدّيك ورْدٌ وهو غضّ قال: يحيى،

( يُجنّي من الجنّي )

فدوّق الجفّنَ مني فهو سيفٌ، قلتُ: يحيى،

(يجنّي بالجيم من الجناية)

قلتُ: أصبحتَ ملكَ الحُسْنِ فرداً، قال: يحيى،

(بختي من البخت)

والى عندي حَرّاجُ الحُسْنِ في الأفاق يحيى،

يجبى من الجباية

وإذا العُصنُ تننّى فلقدّي بات يحيى،

يُحنّي من الانحناء

وإذا قام بقدرٍ فنسيم الريح يحيى،

جثى من جثا على ركبتيه

أنا لو شئتُ لحُسني كان فوق البدر يحيى،

تختي من التخت الذي يجلس فوقه  
فهو في الصورة من فوق وفي معناه يحيى،  
تحتي نقيض فوقي  
فقلت: هل أُحِبِّي وصالاً منك حلواً قال يحيى،  
تُحِبِّي من الحِباء  
قلت: لو بُحِتُ بسري خفَّ ما بي قال يحيى،  
بُحُّ بي من البُوح  
وإذا ما ناحت الورقُ على الأعصان يحيى،  
نُحُّ بي من النُّوح  
قلت: ما يقطع خصمي عندَ عدلي؟ قال: يحيى،  
بُحِّي من البُحْتِ  
قلت: لكن اشتهى لو قطعوه، قال: يحيى،  
بُجِّي من الجَبِّ وهو القطع  
قلت: ما لي من شفيح يعتني بي، قال: يحيى،  
بُحِّي من الحُبِّ  
قلت: ما تنجو سريعاً من وصالِي، قال يحيى،  
نُجِّي من النُّجاجِ  
قلت: نحيت غرامي، قال: من قلبك يحيى،  
نُحِّي من التنحية

قلت: نحتُ الصخر دأبي وقد أعيأ فيك يحيى،

نحْتِي من النحت

وكذاك الدهرُ ما زال على الأحرار يحيى،

يُخْنِي أي يَهْلِك

قلت: خذني لك عبداً، قال: من يَأْلَف يحيى،

بِحْنِي من الحنِّ

قلت: جفن قد حثَا الدمع بخدي، قال: يحيى،

يُحْثِي من الحُثْوَة

قلت: قد سال دماً من جفن عيني، قال: يحيى،

ثَجَّ بي من التَّجِّ

قلت: في جفني قرحٌ من بكائي، قال: يحيى،

نَجَّ بي من نَجَّت القرحة

قلت: دُخري دمع عيني، قال: للشدة يحيى،

يُخْبَا من الخبيئة

قلت: مالي قط ذنبٌ، كيف تجفوا؟ قال: يحيى،

تَجَبَّى من التَّجَبَّى

ثم لأنَّ القلبُ منه إذ رأى في اللفظ يحيى،

نُحِّي جمع نُخْبَة

قلت: قُمْ وانشطْ ولا تكسلْ وسافر، قال يحيى،

نَحْنِي مِنَ النَخْوَةِ

قلت: ما تركب إن سرنا جميعاً؟ قال: يحيى،

نُحْبِي جَمْعَ نَجِيبٍ

قلت: فاختر لي مركوباً غليظاً، قال: يحيى،

بُخْتِي بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ

قلت: ما الزاد الذي تعتده لي؟ قال: يحيى،

يَخْنِي يَعْنِي مَسْلُوقاً

قلت: وما الماء الذي نلقاه ورداً؟ قال: يحيى،

بِجُبِّي يَعْنِي الْجُبَّ

قلت: إن كل بعيري بم يُرْجَى؟ قال: يحيى،

بِخْتِي مِنَ الْحَتِّ

فهُو لَوْلَمْ يَقْضِ قَاصِدِي كُنْتُ أَقْضِي فِيهِ يَحْيَى،

نَحْبِي مِنْ قَضَى نَحْبِهِ

## الألغاز الشعرية النحوية

الألغاز النحوية باب من أبواب تراثنا القديم طريف ممتع، عُني به أئمة اللغة الكبار من النحاة والبلاغيين، حتى كثر التصنيف فيه وأفردت له مؤلفات خاصة جمع فيها مصنّفوها أفانين شتى من هذا اللون الشائق من ألوان البحث اللغوي وتباروا في النسج على منواله، وحلما فيه من إشكالات لفظية أو معنوية. والمتصفح لهذا التراث يجد بغيته منه تحت عناوين شتى منها "الألغاز" و"الأحاجي" و"المعمّيات" و"الملاحن" ومع ما بين هذه العناوين من فروق دقيقة تناولها الدارسون يبقى أنها تجتمع جميعاً في أنها تمثل تحدياً لعقلية السامع، واستفزاز قدراته العقلية، وامتحان مهاراته اللغوية.

وقد حاول بعض السلف أن يحددوا القيمة البلاغية للألغاز فقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر أن اللغز "إنما وضع واستعمل لأنه مما يشحذ القريحة، ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يُحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن، والسلوك في معارج خفية من الفكر..."، أي أن الوظيفة الحقيقية للألغاز تستهدف تنمية القدرات العقلية والملكة اللغوية، فضلاً عن وظيفتها الترفيهية الممتلئة في الإمتاع.

ولعل هذا المنظور نشأ مع نشأة الألغاز التي قصد منها في بداية ظهورها تحدى عقلية المستمع وحفز تفكيره لمحاولة حل اللغز وبيان ما فيه من غرابة، وكانوا يتسامرون بهذه الألغاز كقول بعضهم عن النار :

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

وَأَكَلَةٌ بَغِيرِ فَمٍ وَبَطْنٍ      لَهَا الْأَشْجَارُ وَالْحَيَوَانُ قُوتُ  
إِذَا أَطْعَمْتَهَا اتَّعَشَتْ وَعَاشَتْ      وَإِنْ أَسْقَيْتَهَا مَاءً تَمُوتُ

ووجه الغرابة في هذا اللغز، يظهر من المفارقة بين الأكل والشرب، فهذه الأكلة المسؤولة عنها، إذا شربت تموت. وهذا أمر مخالف لطبيعة كل المخلوقات الآكلة..

وهناك نوع آخر من الألغاز يعتمد على البناء اللغوي للكلمة التي هلى حل اللغز، كما في قول الشاعر:

حروفه محدودة خمسة      إذا مضى حرفٌ تبقى ثمان!

أي أن الشيء المجهول المسؤول عنه يتألف من خمسة حروف، إذا ضاع منها حرف بقى ثمانية حروف، فوجه الغرابة في اللغز أن المتبقي يجب أن يكون أربعة أحرف. ولكن المفارقة تأتي من استعمال كلمة (ثمان) فإنك إذا سبقتها بحرف واحد وهو العين صارت (عثمان) وهو حل اللغز المطلوب.

وهناك نوع آخر من الألغاز يصعب الاهتداء إلى حله بطريق الحدس والحزر وحسن التقدير، فهذا شاعر يتحدث عن ضرسه الذي يأكل به ويعتمد عليه في طعامه، فهذا الضرس يخدمه طوال عمره من غير أن يراه، فإذا خلعه وألقى به فلن يلتقيا بعد ذلك. يقول هذا الشاعر ملغزاً في ضرسه.

وصاحب لا أمل الدهر صحبته      يشقى لنفعي ويسعى سعى مجتهد  
ما إن رأيت له شخصا، ومد وقعت      عيني عليه، افترقنا فرقة الأبد

ومثل هذا النوع من الألغاز، لا يدرك حله عن طريق البناء اللغوي، وإنما يُدرك حله عن طريق البحث العقلي عن وجه المفارقة والغرابة.

### الغز والتعقيد اللغوي:

وقد بلغت عناية القدماء بالألغاز أن عدوها صناعة لغوية رأوا فيها مجالاً لجدح زناد العقول، وتدريب الأفهام على إدراك تراكيب اللغة المعقدة، وكشف العلاقات بين تلك التراكيب. والمثال التالي من هذا النوع، فالشاعر في هذا البيت يصف حاله وهو في معركة ومعه صديقه خالد وعمرو، فلما تكاثر عليه الأعداء وبلغت السيوف أنيابها، أمر صديقه عمراً أن يلحق بخالد، فهو يقول:

أقول: لـ خالداً يا عمرو، لَمَّا عَلَّتْ نايي السيوفُ المرهفاتُ

واللام المكسورة (ل) ليست حرف جر، بل هي فعل أمر من الفعل (وَلَّى - يَلِي) مبني على حذف حرف العلة، مثله مثل كل أفعال الأمر التي تجيء على حرف واحد مثل "ق" من الوقاية، ومثل "ف" من الوفاء، وما شابههما. و"خالداً" مفعول به أي: الحق يا عمرو خالداً.

والمغزون القدامى يعتمدون على المغالطة الصوتية فينطقون البيت نطقاً سليماً، ولكنهم من باب الإلغاز والتعمية يكتبونه كما ينطقونه فتظهر كتابته هكذا:

أقول لخالداً يا عمرو، لما علتنا بالسيوفُ المرهفاتُ

والباء المسكورة الملحقة بكلمة "السيوف" ليست حرف جر، بل هي جزء من كلمة "نايي" [أي: مفرد أنيابي] ومعنى البيت "لما اشتدت الحرب حتى علت

سيوف الأعداء نابي قلت لعمرو: تول خالدا والحق به" وقد ظهرت الغرابة في وجود كلمتين إحداهما منصوبة بعد حرف الجر، والأخرى مرفوعة بعد حرف الجر. في حين أن اللام والباء هنا ليسا حرفي جر، وإنما هو التلاعب والتعقيد اللغوي المقصود.

ومن هذا النوع المعتمد على التعقيد اللغوي ما يكون فيه الخداع قائماً على الأداء الصوتي فقط دون الكتابين كما في قول الشاعر:

لقد طاف عبد الله بالبيتِ وحج من الناس الكرام الأفاضلُ

فالمفارقة هنا تظهر من مجيء كلمة (عبد الله) منصوبة بالفتحة مع أنها فاعل حكمه الرفع بالضممة ، ومن مجيء كلمة (البيت) منصوبة بالفتحة مع وقوعها بعد حرف الجر (الباء)، وكذلك مجيء كلمة (الناس) مرفوعة مع وقوعها بعد حرف الجر (من)، وحل هذا اللغز أن في المواطن الثلاثة مداً صوتياً قصيراً وأصل البيت هو:

لقد طاف عبدا الله بي البيت سبعةً وحج منى الناس الكرام الأفاضلُ

أي أن للشاعر صديقين من عباد الله طافا به البيت سبعة أشواط وقت أن كان الناس الكرام الأفاضل يحجون إلى منى".

فكلمة (عبدا) مثنى أضيف إلى لفظ الجلالة فالتقي ساكنان فصار المد قصيراً فراراً من التقاء الساكنين لو امتد الصوت بالمد الناشئ عن ألف الاثنين. وكذلك كلمة (بي) التقى المد الناشئ عن ياء المتكلم [المبنية في محل جر بالباء] بألف

الوصل أول كلمة (البيت) فامتنع المد الطويل، وهو الحال أيضاً في الألف المقصورة التي تنتهي بها كلمة (منى) حين التقت بألف الوصل في أول كلمة (الناس) فصار المد قصيراً. وهذا البيت في حال إلقائه يثير انتباه من يستمع إليه وقد يستغرق وقتاً طويلاً في تفسير ما يسمع.

**صم يتكون اللغز؟ :**

يتكون اللغز عادة من عدد من العناصر تتألف فيما بينها بهدف تحقيق المفارقة التي تحير فهم السامع أو القارئ، وتستثير اهتمامه، ومن خلال استعراض الكتب القديمة التي جمعت ألواناً من الألغاز، وحلولها، يمكن استنباط المكونات الأساسية للغز وهي:

### ١- المكوّن البلاغي:

وذلك حين يعتمد اللغز على فن من فنون البلاغة مثل الكناية أو الاستعارة أو الاشتراك اللفظي، أو الجناس، أو التورية، ومن هذا اللون ما رواه العسكري من أن الرشيد سأل أهل مجلسه عن قول الشاعر:

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحْرَمًا      ودعا فلم أر مثله مخذولاً

فقال: أي إحرام هذا؟ فقال الكسائي: أحرم بالحج، فقال الأصمعي: والله ما أحرم ولا قصد الشاعر هذا، ولو قلت أحرم: أي دخل في الشهر الحرام كما يقال أشهر:

أي دخل في الشهر لكان أشبه [أي أقرب إلى الصواب]. فقال الكسائي: فما

أراد الشاعر بالإحرام؟ قال الأصمعي: كل من لم يفعل شيئاً يستحق به العقوبة فهو مُحرم. كما قال عدي بن زيد:

قتلوا كسرى بليلاً محرماً فتولى لم يمتّع بكفن

فهذا اللغز إذاً يعتمد على مكون بلاغي أساسه الاشتراك اللفظي لأن لفظ (محرّم) له ثلاث معانٍ كما رأينا: من لم يذنب ذنباً يعاقب عليه، ومن دخل في أحد الأشهر الحرم، ومن أحرم بالحج.

## ٢- المكوّن اللغوي:

وإذا كان المكون البلاغي يعتمد على فنون البلاغة، وهي متعددة، من جناس وتورية واستعارة، ولها جمالها الأخاذ، وبريقها الساحر، وبنائها المستفز للعقول، فإن هناك لوناً آخر من الألغاز يعتمد على مكون لغوي قوامه ما في اللغة ذاتها من ثراء يتمثل في ظواهر متعددة كالاستقاق والنحت والإضمار والحذف وغير ذلك. فمن ذلك ما رواه الحريري في مقاماته ونص اللغز:

- أين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل؟ وجوابه أنها السين التي تدخل على الفعل المضارع المسبوق بأن الناصبة فتعزل (أن) عن عملها لا تنصب الفعل بل تتحول إلى (أنّ) مخففة كما في قوله تعالى: { عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ } [المزمل: ٢٠] أي أنه علم أنه سيكون منكم مرضى، فصارت (أن) هناك مخففة من الثقيلة وعزلتها السين عن عملها الأصلي وهو النصب.

### ٣- المكوّن الكتابي:

وهذا المكوّن يعتمد على ما يسمى (التصحيف) أي تغيير شكل الكلمة كتابياً، بطرق مختلفة كوصل ما لا يوصل، أو فصل ما لا يفصل، أو إهمال وضع النقاط في موضعها، أو وضعها في غير مواضعها. وقد سبق أن مثلنا لهذا اللون من الألغاز بقول الشاعر:

أقول لخالداً يا عمرو لما علتنا بالسيوف المرهفات

ومن هذا اللون الذي يعتمد على الخداع الكتابي أو التصحيف قول الشاعر:

وعلام رأيتَه صار كلباً ثم بعد ذاك صار غزالاً

وجوابه أن المقصود هنا (صاد) من الصيد، وليس (صار) بمعنى تحول.

ومنه لغز في (الفيل) وكلمة (فيل) تتكون من ثلاثة أحرف وإن كان للفيل أربعة أرجل. هذه الكلمة (فيل) إذا صحفت صارت (ليف) فتكون من ثلاثة أحرف وثلاثها كلمة (لي) وقد صاغ الشاعر هذا اللغز فقال:

ما اسم شئٍ تركيبه من ثلاثٍ وهو في أربع تعالي الإله

"قبل" تصحيفه ولكن إذا ما عكسوه يصير "لي" ثلاثاه

### ٤- المكوّن الصوتي:

وعلى العكس من المكوّن الكتابي، فهناك المكوّن الصوتي الذي يعتمد الإلغاز فيه على الخداع الصوتي عن طريق استخدام المد الطويل والقصير والإخفاء والإدغام

التنوين وغير ذلك من مظاهر الأداء الصوتي.. وقد مثلنا له في البداية بقول الشاعر الذي يعتمد على الخداع الصوتي عن طريق المد القصير:

لقد طاف عبد الله بالبيت سبعةً وحج من الناس الكرام الأفاضل

ومن هذا اللون الصوتي الذي يعتمد على الإدغام مثل قول الشاعر:

عافت الماء في الشتاء فقلنا برّديه تصادفيه سخيناً!!

فكيف تعاف الماء في الشتاء لبرودته ثم يطلب منها أن تبرده لكي تجد ساخناً؟.. والخداع الصوتي هنا جاء من إدغام كلمتين هما (بل) و(رديه) – بكسر الراء والبدال –: أي (اشربي منه) فصارتا: بل رديه، وعند النطق بهما مدغمتين تصحان كالكلمة الواحدة: برّديه. والمعنى: لا تخافي الماء ولا تعافيه. بل اقتربي واشربي فستجدينه ساخناً.

تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

وفي رأينا أن من الممكن استخدام الألغاز في تعليم القواعد النحوية لتحقيق

الأهداف التالية:

- ١- تنمية قدرة التلميذ على الربط بين عدد من القواعد النحوية.
- ٢- تنمية ملكة التذكر عن التلميذ.
- ٣- تحقيق الترابط بين القاعدة النحوية وتطبيقها.
- ٤- تنسيط مهارة الاستماع لدى التلميذ أثناء تدقيقه لإدراك ما في الألغاز من

### خداع صوتي في إلقائها.

- ٥- تحسين قدرة التلميذ على استعمال المخارج الصحيحة للحروف.
- ٦- تمكين التلميذ من إدراك مواضع الفصل والوصل.
- ٧- تنمية قدرة التلميذ على الإبداع ابتكار أَلغاز مماثلة.
- ٨- توسيع الأفق للتلميذ بتمكينه من الربط بين البلاغة والقواعد النحوية.
- ٩- زيادة المحصول اللغوي للتلميذ من خلال الأَلغاز التي تعتمد على الاشتراك اللفظي وحلولها.
- ١٠- تمكين التلميذ من استخدام الإيجاز في التعبير عملية تطبيقية.

### أساليب تعليم النحو بالأَلغاز:

ومن الممكن استخدام عدة مداخل، أو أساليب لاستخدام الأَلغاز في تعليم القواعد النحوية. فمن الأساليب التقليدية يمكن الاعتماد على طريقة البطاقات أو الألعاب اللغوية أو التمثيليات القصيرة، وكلها طرائق مألوفة في تعليم القواعد ويبقى أن يتم بناء محتواها بحيث يتضمن اللغز المطلوب حله مؤدّى بطريقة مشوقة، ثم يأتي الحل أيضاً بطريقة مشوقة.

كذلك يمكن الاعتماد على المدخل المسرحي من خلال تأليف مسرحيات مدرسية تتحقق لها أعلى درجة ممكنة من الإثارة والتشويق من خلال الحوار واستخدام الوسائط التعليمية على المسرح بحيث يتضمن محتوى المسرحية أَلغازاً

## مثيرة للتفكير.

وأما أساليب تعليم النحو الحديثة فيتسع فيها المجال لتعليم القواعد النحوية من خلال الألغاز، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق بناء برامج تعليمية مخصصة لهذا الغرض. كما يمكن استخدام الحاسوب في هذا الميدان بكفاءة، وتصميم برامج تعليمية حاسوبية تتدرج فيها الألغاز من مستوى إلى مستوى تبعاً لتطور المنهج الدراسي.

وإن كنت أرى أن المرحلة الأنسب لاستخدام هذه الطريقة هي المرحلة الثانوية لما تحقق لتلاميذها من نمو عقلي يناسب هذا اللون من التعليم الابتكاري.

### صعوبات تعليم القواعد النحوية باستخدام الألغاز:

غير أن هناك صعوبات تكثف هذه الطريقة لعل من أهمها:

- ١- كون اللغة العربية في معظم مناهجنا تدرس بوصفها فروعاً مستقلة مما يسهم في تجزيئية الفكر اللغوي عند التلاميذ.
- ٢- ضعف ثقافة معلمي اللغويات العربية التراثية، فهناك ما يقرب من ثلاثمئة مرجع لغوي قديم وحديث تحتوي ألغازاً متعددة معظمها بعيد تماماً عن مناهج كليات التربية والآداب التي تقوم بإعداد المعلمين.
- ٣- إن اللغز يشير إلى القاعدة إشارة ولا يشرحها، ومن ثم فإن برنامج مقترحاً لتنفيذ هذه الطريقة قد يكون أجدى من الأساليب التقليدية كالتمثيليات

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

أو البطاقات أو الألعاب.

٤- أن الأسلوب التقليدي لتعليم النحو على هيئة أبواب مستقلة قد يجعل من الصعوبة استخدام الألغاز التي تربط بين أكثر من باب من أبواب النحوي آن واحد.

## هل عرف أجدادنا أدب الأطفال ؟

أدب الطفل ، أو أدب الأطفال ، هو تلك الأعمال الأدبية المنتجة خصيصاً للأطفال وتشمل الأجناس الأدبية المعروفة في أدب الكبار من شعر وقصة ومسرحية فهو في النهاية وجه ثان لأدب الكبار يشترك معه في الأهداف العامة وهي الإمتاع والتسلية والتهديب والتثقيف . ويختلف عنه في الحجم واللغة ، فمن المتعارف عليه أن يكون أدب الأطفال أصغر حجماً إذ لا قدرة للطفل على متابعة رواية متشابكة طويلة ، ولغة الطفل محكومة بنموه اللغوي المحدود فلا يصح أن تكون لغة الأدب الأطفال صعبة المعاني أو مجازية التراكيب .

وإذا كان فنا القصة والمسرح قد وفدا إلى الأدب العربي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين مع الاحتكاك الثقافي بأوروبا ، فإن الشعر كان هو الفن الأدبي الأكثر عراقية في الثقافة العربية . بل إنه كان ديوان العرب وسجل حياتهم ووسيلتهم الإعلامية والتربوية قديماً .

وقد ذهب بعض دارسي تاريخ الأدب العربي إلى أن الشعر العربي القديم تضمن كثيراً من عناصر فننى القصة والمسرحية من حيث الشخصيات والحوار والحبكة الدرامية وكأنهم أرادوا بذلك أن ينفوا أن يكون مولد دينك الفنين : القصة والمسرحية نتيجة تأثر بالأدب الغربى .

وقياساً على ذلك يمكن القول بأن أدب الطفل ، إذا عدناه فناً أدبياً جديداً له جذور في تراثنا الشعري القديم . غير أن مثل هذا القياس لا يسلم ، لأن لأدب الطفل ، بمعناه الحديث ، خصائص تميزه من غيره ، وتجعله فناً ذا طابع خاص ومن ثم تصبح نسبته إلى الأدب القديم غير شرعية .

غير أن شعرنا العربي القديم إذا لم يكن قد احتوى أدب الأطفال بوصفه فناً أدبياً خاصاً؛ فقد تضمن الكثير من أدب الأطفال بوصفه لوناً شعرياً متميزاً ، أو غرضاً شعرياً عرفته القصيدة العربية ، فقد روت لنا كتب التراث كثيراً من الأبيات أو المقطوعات أو أبعاض القصائد التي تحدث أصحابها فيها عن تربية الأطفال وشؤونهم ( كما روت لنا كتب التراث كثيراً من تلك الأرجاز التي كانت النسوة يتغنين بها لأطفالهن ، أو يرقصنهم بها . بل ونسبت كتب التراث ذلك في بعض الأحيان للرجال ، فكأن الرجل العربي القديم لم يكن متجهماً فظاً غليظ القلب كما تصوره لنا بعض الكتابات . بل كان يشارك زوجته في خدمة بيته وحمل أطفاله وترقيصهم وتدليلهم إذا دعت إلى ذلك حاجة .

فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين أن الزبير بن العوام كان يرقص ابناً له وهو ينشد مرتجراً متفاخراً بابنه الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق :

أبيض من آل أبي عتيق

مبارك من ولد الصديق

## ألدّه كما ألدُّ ريقى

وروى الراغب الأصفهاني في ( محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء )  
نموذجاً آخر من بحر الرجز لشاعر يصف وجوه أطفاله بأنها كالأقمار جمالاً ، وهو  
يقول إنه لولا هؤلاء الصغار للزم داره ولم يغش تصور الملوك الجبابرة ولكن حاجته  
إلى المال لرعاية أطفاله ألجأته إلى مدح الملوك :

والله لولا صبية صغار

وجوهم كأنها أقمار

لما رأني ملك جبار

ببابه ، ما طلع النهار

ويروى لنا صاحب " العقد الفريد " أبياتاً رجزية أخرى مما كان يستخدم  
في ترقيص الأطفال لأعرابي خفيف الظل يشبه حبه لطفله ، بحب بخيل أتاه المال  
بعد معاناة وفقر شديدين ، فهو يحب ماله حباً جماً ، وكلما عنّ له أن ينفق شيئاً  
من ماله ذلك الذي أتاه بعد طول نقر ، بدا له شئ عاقه عن بذل ذلك المال .  
فهوضنين بطفله تماماً كضن ذلك البخيل بماله فيقول ذلك الأعرابي وهو يرقص  
طفله :

أحبه حبَّ الشحيح ماله

قد كان ذاق الفقر ، ثم ناله

إذا أراد بذله ، بداله

وشاع فى كتب التراث أيضا ذلك الترقيص الذى تغنت به أعرابية :

يا حبذا ريح الولد

ريح الخزامى فى البلد

أهكذا كل ولد ؟

أم لم يلد مثلى أحد ؟

فهذه الألوان السابقة من الشعر يمكن أن نحتسبها جذورًا حقيقية لأدب الأطفال فى تراثنا العربى، ويمكن أن نضيف إليها ذلك القصص الرمزية الذى رواه لنا الجاحظ فى كتاب الحيوان " وكتاب " المحاسن والأضداد " المنسوب له ، أو رواه لنا أبو العلاء فى ثنايا كتابه الضخم " رسالة الصاهل والشاحج " أو ما رواه الأبتشيى فى كتابه " المستطرف من كل فن مستظرف " ومن هذا المصدر الأخير نختار القصة الآتية :

قال الشعبى : مرض الأسد فعادته السباع ماعدا الثعلب ، فأراد الذئب أن يكيد للثعلب عند ملك الحيوانات فقال للأسد : أيها الملك . لقد مرضت فعادتك السباع جميعاً ماعدا الثعلب ، قال الأسد : فإذا حضر الثعلب فأخبرنى . فلما بلغ ذلك الثعلب جاء ليعود الملك فقال له الأسد : يا أبا الحصين مرضت فعادنى السباع كلهم إلا أنت . قال الثعلب : بلغنى مرض الملك فخرجت أسعى فى طلب الدواء له

فقال الأسد : فأى شئ أصبت ؟ قال الثعلب : قالوا لى : عليك بخرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج فيعالج بها الملك . فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فشققها ، وتسلس الثعلب خارج عرين الأسد ، وبعد قليل مر عليه الذئب يعرج والدم يسيل من ساقه . فقال له الثعلب : يا صاحب الخف الأحمر ، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان ، فانظر ما يخرج من رأسك !! "

فمثل هذه القصة وغيرها مما روته لنا كتب التراث يصلح أن يكون مادة طيبة لأدب أطفال حقيقى يشتمل على كل الخصائص التى يمتاز بها أدب الأطفال العصرى ، وهذا القصص القديم إلى جانب شعر الترقيص الذى أشرنا إليه ، مما نستطيع أن نعهده - دون تجوز - أصولاً عربية حقيقية لأدب الأطفال . فإذا انتقلنا إلى لون آخر من ألوان الأدب القديم المتصلة بالأطفال، وجدنا ما يمت إلى الأطفال بصلة ما ، مثل الحديث عن تربيته وتعليمهم ، والحديث عن تنكرهم - فى بعض الحالات - لآبائهم أو أمهاتهم ، والحديث عن رثاء الأطفال الذين ماتوا صغار فلم تقربهم عيون أهلهم .. إلى آخر تلك الفنون التى نرى أنها تنتمى إلى أدب الكبار أكثر من انتمائها إلى أدب الأطفال ، وما نرى فيها إلا لوناً خاصاً من ألوان الفن أو عرضاً جديداً من أغراض الشعر لم يلتفت إليه نقادنا قدر التفاتهم إلى تلك الأغراض الشعرية التقليدية من مرح وفخر وهجاء وغزل .

والحطيئة مع ما جبل عليه من شراسة الطبع ، وتبلد المشاعر ، وحدة الجفاء ، يروون عنه أبياتاً تفيض رقة وعذوبة فى مجال حياته الأسرية كقوله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سجنه :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ زغب الحواصل لإماء ، ولاشجر  
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاعفر عليك سلام الله يا عمر  
فقد روى أن الحطيئة هذا الغليظ القلب أراد سفرًا طويلاً فهدى دابته وأخذ  
متاعه على راحلته وخرجت زوجته وبناته يود عنه فقال مخاطباً إياها بطول  
الغياب :

عُدّى السنين إذا رحلتُ لرحلتى

ودعى الشهور فإنهن قصار

فأجابته زوجته فى الحال بقولها :

انكرتحنُننا إليك وشوقنا

وانكربناتك إنهن صغار

فأخذته العاطفة إلى بناته وقال لمرافقيه : حطوا - أى أنزلوا أمتعتى من  
على الرواحل - فوالله لارحلت أبداً .

وهكذا ، يجد المتأمل فى تراثنا الأدبى القديم ثروة وأصولاً طيبة ليس فقط  
لأدب الأطفال بمعناه العلمى الضيق ، بل ولأدب الأطفال بوصفه باباً واسعاً من  
أبواب الأدب العربى القديم كما نقول : أدب الكتاب ، وأدب الوزراء بمعنى ما قيل

صفحات مجمّولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

لهم وفيهم وعنهم وفي مجالسهم من أشعار وقصص ومساجلات ومسامرات وأحاديث . فلا جناح علينا إذًا أن نتسع بمفهوم أدب الأطفال في تراثنا ليشمل :  
أ - القصص الرمزي على ألسنة الحيوانات والطيور فمثل ذلك القصص يصلح للأطفال في كل زمان ومكان .

ب - مراثى الآباء والأمهات لأبنائهم

ج - شعر الترقيص .

د - مراسلات الآباء والأبناء .

هـ - عتاب البناء العاقين .

و - قضية وأد البنات وما ورد فيها من شعر تأييدًا أو تفنيدًا .

ز - تعليم الأطفال .

ح - نواذر المعلمين مع الأطفال ( كما في رسالة المعلمين للجاحظ ) .

## عندما يهجو الشعراء آباءهم !!

من عجائب الدنيا أن يكون بين الوالد وولده من الجفوة وسوء المعاملة ما يكدر صفو الحياة ويحول الحياة الأسرية إلى نكد مستمر، وعذاب متجدد، وقد يكون الوالد هو السبب في ذلك حين يسيء معاملة ابنه فينشأ الابن عاقاً غليظ القلب متمرداً، بل وخبيث اللسان أيضاً فقد قالوا: كان لحنظلة النميري ابن عاق اسمه مرة، فقال له يوماً: إنك لمريا مرة فقال: أعجبتني حلاوتك يا حنظلة !!، فقال: إنك خبيث كاسمك، فقال: أخبت مني من سماني به، فقال: كأنك لست من الناس فقال: من أشبه أباه فما ظلم، قال: ما أحوجك إلى أدب، قال:

الذي نشأت على يده أحوج إليه مني، قال: عقت أم ولدتك، قال: إذا ولدت من مثلك،

قال: لقد كنت مشؤوماً على إخواتك، دفنتهم وبقيت، قال: أعجبتني كثرة عمومتي، قال: لا

تزداد إلا خبتاً، قال: لا يجتني من الشوك العنب.

ومن غرائب تراثنا الشعري ما نجده في كتب التراث عند نفر من الشعراء عرفوا بسلطة اللسان وسوء الخلق، وعقوق الوالدين.

ويأتي على رأس هؤلاء "الخطيئة" الذي هجا نفسه وأمه وأباه، فقد روى الراغب الأصفهاني في محاضراته أن "الخطيئة" قال يهجو نفسه وقد نظر في بئر فساءه منظره:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلمنا  
أرى لي وجهاً قبح الله خلقه  
وقال يهجو أمه:

لحاك الله شرا من عجوز  
تنحي واجلسي مني بعيدا  
أغريبالاً إذا استودعت سراً  
ألم أوضح لك البغضاء مني  
حياتك ما علمت حياة سوء  
وقال يهجو أباه:

لحاك الله ثم لحاك حقاً  
فبئس الشيخ أنت على النوادي  
جمعت اللؤم لا حياك ربي  
أبا، ولحاك من عم وخال  
وبئس الشيخ أنت لدى المعالي  
وأبواب المخازي والضلال

وقال أيضا يهجو والديه معا في بيت واحد مخاطبا أمه:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني  
ومما روى الخالديان في "الأشباه والنظائر" قول أعرابي يهجو أباه وقد رآه  
يتصابى وهو في سن متقدمة ويتخلى عن وقاره وعما يليق بسنه من هيبة وترفع  
فقال يهجو:

إذا كانت الآباء مثل أب لنا

فلا أبقت الدنيا على ظهرها أبا

إذا شاب رأس المرء أقصر وارعوى

وإن أبانا حين شاب تشببا

وروى أبو الفرج في "الأعاني" عن "مطيع بن إياس" الشاعر الماجن المعروف أنه كان عاقا لأبيه شديد البغض له ، وقد رآه يوما مقبلا عليه من بعيد "ومطيع" جالس مع إخوانه يشربون الخمر فلما اقترب منهم "أبو مطيع" قال "مطيع" يهجو:

هذا إياس مقبلا

جاءت به إحدى الهنات

"هوزن" فوه وأنفه

"كلمن" في إحدى الصفات

وكان "سعفص" بطنه

والثغر "شين" "قريشات"

لما رأيتك آتيا

أيقنت أنك شرآت

وتبدو في الأبيات رائحة الخمر وآفة السكر فهو يسخر من منظر أبيه ويشببه بمجموعات الأبدية العربية القديمة (هوز-كلمن-سعفص-قرشت).

وروا عن أعرابي أنه دخل على كسرى مجلس ملكه فهاهه ما رأى من بهاء المقاصير وفخامة الأرائك وصباحة الوجوه ، وتذكر ما يعانيه قومه البدو الأعراب من شظف العيش وسوء الحال وكآبة المنظر فقال:

لكسرى كان أعقل من تميم

ليالي فر من بلد الضباب

فأسكن أهله ببلاد رجب

وأشجار وأنهار عذاب

فصار بنو أبيه بها ملوكا      وصرنا نحن أشباه الكلاب  
فلا رحم الإله هدى تميم      فقد أزرى بنا في كل باب  
وأما الشاعر "ابن عنين" وقد كان أيضا من المجان المولعين بالهجاء ، وله قصيدة شهيرة سماها "مقراض الأعراض" هجا فيها كثيرا من معاصريه ، أشار إليها "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" وابن خلكان في "وفيات الأعيان" فقد هجا أباه فقال:

وجنبني أن أفعل الخير والدُّ      ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهل التناسل  
بعيد من الحسنى ، قريب من الخنا      وضع مساعي الخير جم العايب  
إذا رمت أن أسمو صعوذا إلى العلا      غدا عرقه نحو الدنيا جاذبي  
وروى ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عن الشاعر علي بن محمد بن بسام البغدادي ، وكان شاعرا مجيدا إلا أن غالب شعره كان في الهجاء حتى هجا نفسه وهجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته وكان يكنى أبا جعفر فقال:

بنى أبو جعفر داراً فشيدها      ومثله لخيار الدور بناء  
فالجوع داخلها والذل خارجها      وفي جوانبها بؤس وضراء  
ما ينفع الدار من تشييد حائطها      وليس داخلها خبز ولا ماء  
وروى المحبي في خلاصة الأثر عن الأديب أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد الأديب اللغوي الشاعر المنشى المشهور أصل والده من جزيرة قبرس

بالسين المهملة لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة بالبحر الشامي وهو من الفىء الذي أفاءه الله على الأسلام حين فتحها فأشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق ومكت بعد الأمير يزداد في الرفعة حتى صار أحد الأعيان المشار إليهم بالتقدم وولد له أحمد هذا ونشأ وانتظم في سلك الجند ولما وقعت الفتنة بين علي بن جانبولا نو العساكر الشامية وانتهى الأمر إلى انهزام العسكر الشامي وقتل منهم من قتل وأسر من أسركان الشاهيني من جملة من أسر في تلك الوقعة ولما أطلق من ربة الأسر اعتاض عن الوشيح والحام بالقراطيس والأقلام كما قال :

صبوت إلي حب الفضائل بعدما تقلدت خطيا وصلت بلهزم

وكان الشاهيني على طريقة ابن بسام ويقفو أثره في عبث اللسان وشكوى الدهر وهجاء أبناء عصره وكان ابن بسام هجا أباه فضرب الشاهيني على قلبه ونسج على منواله حيث قال في أبيه

أقول لركب من معين وهم على جناح رحيل دائم الخفقان  
أما أنه لولا فراق بكورنا يثبن إلى ردى بجذب عناني  
ولولا أبي شاهين قص قوادمي لكان جناحي وافر الطيران

وقال

لما رأيت العيش من ثمر الصبا وعلمت أن العفو حظ الجاني  
أدركت مالا سولته شبيبي وفعلت مالا ظنه شيطاني

ولما مات والده في سنة أربعين وألف حزن لفقده وانعزل عن الناس مدة .

صفحات مجهولة ← من تراثنا الشعري الفكاهي (شخصيات ومواقف)

وقال آخر في أبيه:

لي والد متحامل      من غير ما جرم عملته  
إن لم يكن أشنى إليّ      من المنون فلا عمدته

وقال في أخيه منصور:

أبوك أبي وأنت أخي ولكن      أبي قد كان يبذر في السّباح  
تجاريني فلا تجري كجري      وهل تجري البيادق كالرخاخ